وسائل النصر وأسبابه

في هدى القرآن الكريم

الحلقة الثالثة (في لقاء الأعداء ومدافعتهم)

أ .د محمد إبراهيم شريف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين ولا عدوان إلا على الظالمين ، والصلاة والسلام على النبي الكريم المبعوث رحمة للعالمين وهديه لخلقه إلى يوم الدين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين بلغوا عنه وحملوا هدية ورحمته إلى الناس أجمعين فنصرهم الله نصرا مؤزرا ، وأظهر بهم دينه على الدين كله ولو كره الكافرون .. وبعد

فهذه هي الحلقة الثالثة والأخيرة من بحوث وسائل النصر وأسبابه في هدى القرآن ضمناها ما بقى من وسائل النصر المتعلقة بلقاء الأعداء ومدافعتهم نستكمل بها ما تعرضنا له من وسائل وأسباب أخرى تتعلق بالأعداء والتحضير المادي والمعنوي لهذا اللقاء المرتقب والمتوقع دائما مع قوى الشر والبغي التي تترصد دائما لوأد الرحمة والهداية ، واجتثاث بذور الخير التي تحملها رياح الإسلام وتوجهاته وتنشرها بين العالمين .

وهذه الوسائل والأسباب التي بين أيدينا والتي هدى إليها القرآن الكريم نصا أو استنباطا – كما نبهنا من قبل – لا تنفصل عنها أو تستقل سائر الوسائل والأسباب التي سبق التعرض لها في الحلقتين السابقتين ، بل هي مصاحبة لها ومستمرة معها في تحقيق النصر المأمول والموعود به من الله تعالى ، ومن ثم لا يفجأنا هذا التداخل والتلاحم بين كثير من هذه الوسائل والأسباب في الحلقات الثلاث ، وإنما كان توزيعها وتصنيفها مما استدعه ضرورة البحث وفنيته ، ورجع كل وسيلة إلى وقتها وميدانها التي هي إليه أقرب وأنسب من جهة ، ثم لتيسير درسها واستيعابها من جهة أخرى.

وبعد : فهذا ما رجونا أن نسجله في هذه البحوث – والأمة تمر بمنعطف تاريخي خطير ، وتواجه بإعصارات وطغيان عنيد يتهدد حاضرها ومستقبلها إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمد بعيد – عسى أن ينفع الله بها ، وتبرأ بها ذمتنا من من تبرأ ذمتهم عند الله، ويتقبل أعذارهم من المستضعفين الذين لا يملكون إلا مجاهدتهم بألسنتهم وإنكارهم بقلوبهم .

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل لا حول ولا قوة إلا بالله ،،

د. محمد إبراهيم شريف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولا : التخطيط العام للقاء الأعداء

وهـذا التخطـيط للقاء الأعداء ينتظم جوانب عديدة من تحديد مكان المعركة وزمانها المناسبين والتكلم على أسرار الخطط الحربية ، واختيار قادة المعركة ، ومقاتلة الجنود تحت رايات معينة واستعراض القادة لهم والتنظيم والتقسيم وغير ذلك مما يشير إلى كثير من آيات عدة في القرآن الكريم .

ومما يفيد كثيرا في تحديد مكان المعركة وزمانها دراسة طبيعية الأعداء ومعرفة أعدادهم ومعداتهم كما يفيد في اختيار المكان المناسب لكل سلاح والذي يؤدي فيه دوره كما ينبغي ، ولا يكون إلا بأيدي المتدربين عليه؛ إذ إن فاعلية الآلات والمعدات تتوقف على الموقع والمكان المناسب لها، وخبرة القائم باستعمالها ودربته العسكرية على ذلك .

وقد اختار ﷺ في غزوة بدر – بمشورة أصحابه – مكان المعركة ، وجعلوا الماء في حوزتهم وبنى له أصحابه عريشا فوق تل يشرف منه على المعركة ، واستخدم نظام الصف في القتال ووضع كل رجل من أصحابه في مكانه المناسب له من القلب والميمنة والميسرة وفي السلاح الذي يجيد استعماله .

وفي غزوة أحد نزل بأصحابه الشعب وجعل ظهر الجيش للجبل وصف أصحابه ووزع القادة منهم في أماكنهم ، وجعل الرماة خلف الجيش على ظهر الجبل ونصحهم بنصح خيل المشركين بالنبال فلا يأتونهم من خلفهم ، وقد سار في غزواته كلها على هذا النحو من التخطيط والتنظيم ، وتمكين كل سلاح من أداء واجبه كاملا ، وقد أشار إلي ذلك وأجمله قول الله تعالي في خطابه لنبيه ﷺ : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران:١٢١) .

ومن هذا التخطيط ما كان يصنعه ﷺ من توزيع أصحابه ومقاتلة كل منهم تحت راية قومه ، وقد أفرد لكل قبيلة غزت معه في فتح مكة رايتها وأمير منها ،وقد تأسى به خالد بن الوليد في اليمامة حيث صاح في الناس أن تمايزوا حتى نعرف من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أين نؤتي ، فميز المهاجرين وميز الأنصار وميز الأعراب كل بنى أب على راية [1]، لأن مقاتلة كل جندي تحت راية قومه أو شعبه أو قبيلته ومحافظته وسلاحه حسبما تيسر أدعى للثبات وإظهار القوة والشجاعة والبطولة والجلادة لما جبلت عليه النفوس من إظهار المحاسن وإخفاء المساوئ .

ومن ذلك استعراض الجنود وإحصاؤها وتفقد أسلحة الحرب وتفحصها ، وقد ثبت أنه ﷺ قد رد عن القتال صبية الصحابة دون الخامسة عشرة ولم يجز منهم إلا من كان راميا حاذقا أو مصارعا جلدا ، وكل من وصل هذه السن من المسلمين اعتبر جنديا ،وقال : «اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام » [2] ،فكان هذا أول إحصاء وضبط اتخذه الخلفاء بعد ذلك سنة في تدوين سجلات للجنود وتحديد مستحقاتهم من بيت المال.

ومن هذا التخطيط التكتم على ما لا يصح للأعداء معرفته من شؤون الأمة بعامة ، وما يتعلق منها بشؤون الاقتتال خاصة وما أعد له من تخطيط واستعداد ، وهو ما يمكن أن يقع فيه بعض المسلمين تهاونا منهم وغفلة ، أو تقصيرا وتفريطا بحسن قصد أو بسوء تقدير ، وقد حذر القرآن الكريم من ذلك أيما تحذير في قوله تعالي : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ* إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ (الممتحنة١ :٢) .

وكائنا ما كان الغرض من ولاية الأعداء والتودد إليهم ،وما وراءه من رغائب النفوس وأهواء القلوب أو اتخاذ يد عندهم يدفع الله عن الموالين والموادين [3] -فلن يقلل ذلك من عدواة الأعداء واعتدائهم بالسنان واللسان وتمنيهم كفر المؤمنين ، كما يطيش هذا الغرض – مهما بدا من صدق أصحابه وسلامة طويتهم –أمام عدواة هؤلاء الأعداء لله وللمؤمنين ، وودهم وتمنيهم أن يخسروا كنز الإيمان ويعودوا كفارا مثلهم بعد أن ذقوا حلاوة الإيمان [4] .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما حرص الرسول ﷺ على أسرار الحرب وإخفاء خططه الحربية وما ينتويه قبل أعدائه حتى لا يصل شيء منها إليهم قبل المعركة فلا تفسد خططه ولا يضيع تدبيره – فقد بلغ شأوا بعيدا ، وبخاصة ما كان من تدبيره في فتح مكة – بعد أن أهدرت قريش شروط معاهدة الحديبية باعتدائها علي حلفاء المسلمين –فقد أمر أصحابه بإنجاز استعدادهم للحركة ، وبعث إلى القبائل المسلمة بالحضور إلى المدنية، ولم يخبر بقصده أحدا حتي المقربين إليه، وقد دخل أبو بكر على ابنته عائشة رضى الله عنهما وهي تعد جهاز رسول الله ﷺ وسألها أين ترينه يريد؟ ،قالت :والله ما أدرى.

ولما اقترب موعد خروجه ﷺ صرح بأنه يريد مكة ،ولكنه حصن هذا ببثه عيونه وأرصاده داخل المدينة وخارجها ، وأقام جماعة على مداخلها وأنقابها ليحول دون وصول أخبار الجيش إلى قريش ، وكان عمر ﷺ يطوف بالأنقاب فيقول : لا تدعوا أحدا يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه ، وكان ﷺ يقول : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها »(٥).

ولم يصل إلى مكة أي خبر مما عزم عليه ﷺ حتى وصل ضواحى مكة ، وأمر ﷺ بإيقاد عشرة آلاف نار ليلقى الرعب في قلوب قريش فتسلم له بلا حرب، وقد تم له ذلك بفضل هذا التكتم الذي لم يمكن قريشا من حشد جيش مماثل،وفاجأتها بهذا الجيش الضخم .

ومن حرصه ﷺ على كتمان خططه وأسراره العسكرية أنه كان إذا أراد غزوة ورى بغيرها حتى يصرف اهتمام أعدائه إلى غير ما يريد ، وما انتصرت أمة على أخرى إلا بإخفائها عن أعدائها ما تنويه تجاهها وبمعرفتها عن هؤلاء الأعداء للمؤمنين من توددهم لأعدائهم أو تمكينهم من معرفة أسرارهم وخططهم أو إتاحتها لغير من يؤتمن عليها .

وفي مقابل ذلك كان ﷺ يعد عيونه وجواسيسه ويدربهم على التسلل في أرض الأعداء وداخل حصونهم ومواقعهم لتعرف أخبارهم حتى يخوض معركته وهو على بينة من الأعداء وخبرة تامة بقوتهم ، ومن ذلك بعثه لعلى بن أبي طالب والزبير بن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العوام ﷺ – قبل غزوة بدر – لتعرف أخبار قريش، فصادفا غلامين من سقاة لقريش ، وكم هم ؟ ، فقالا : هو وراء الكثب ، ولا ندرى كم هم ، غير أنهم ينحرون يوما تسعا ويوما عشرا ،فقال: القوم بين التسعمائه والألف (٦).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال : بعث رسول الله ﷺ بسبسا عينا ينظر ما صنعت عير أبي سيفان فحدثه الحديث ، فخرج رسول الله ﷺ وتكلم فقال : إن لنا طلبة ،فمن كان ظهره حاضرا فليركب معنا ، وانطلق وأصحابه حتى سبقوا ركب المشركين إلى بدر (٧).

وإعداد العيون والجواسيس للحصول على أخبار الأعداء ومعرفة أسرارهم ، وحماية الأمة ووقايتها من وصولهم بإغرائهم ودعايتهم إلى مرضى القلوب وضعاف النفوس في الأمة هو من الحذر والحيطة التى نبه القرآن عليها كثيرا حتى فى أحرج الأحوال وأصعب الظروف ، وقد كان الرسول الله ﷺ القدح المعلى في هذا الشأن إذا كان له مرابطون في الثغور ، وحراس على مداخل المدينة وعلى الجيش ومعداته في إقامته وترحاله، وكان له ولأصحابه علم تام بأرض الأعداء وقوتهم يأتيهم به عيونهم وطلائعهم ، وأمر بعثه ﷺ .

لعلى بن أبي طالب والزبير وغيرهما في بدر وفتح مكة ، ووصاته بذلك في بعثة أسامة بن زيد شهير ومعروف ، وقال ﷺ : "خير الناس في الفتن رجل آخذ بعنان فرسه خلف أعداء الله يخيفهم ويخيفونه " (٨).

وقد أتخذ الخلفاء والقادة العسكريون بعد ذلك هذا الإعداد والتخطيط ديدنا لهم، فعندما أرسل الصديق خالدا لحروب المرتدين قال له : "فإذا دخلت أرض المعركة فسر بالأدلاء ، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل ، وسر في أصحابك على تعبئة جيدة واحرص على الموت توهب لك ما وعى عنك.." (٩).

وترسم خالد هذه الوصاية فانتصر على المرتدين ، وحارب الفرس في خمس عشرة موقعة فلم يهزم ولم يفشل قط في واحدة منها ، وكان ليقظته وحيطه لا يعول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الشجاعة دون الحزم والحيلة فكان يبعث العيون والطلائع ، ويضع رجالا في أعلى الجبل للوقاية ويستبقى طائفة من جيشه في البلاد التي فتحها حماية لظهره ، فكان كما قال عنه عمرو بن العاص : في أناة القطاه ووثبه الأسد (١٠) .

ويضع عمر لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما – حين وجهة لقتال الفرس – دستور هذه الحرب الخفية ودقائق خططها في قوله له : "إذا وطئت أدنى أرض العدو فأنك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خيره وإن صدقك في بعضه ، والفاسق عين عليك وليس عينا لك ، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا فتقطع أمدادهم ومرافقهم ، وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد ، ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ونكاية ، فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك ، واجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يبتكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك ، ثم اذك حراسك على عسكرك، وتيقظ من البيات جهدك.(١١)

ومن تمام التخطيط إيثار السلام والسلامة ما كان لهما من سبيل ، وألا يبدأ الأعداء بعدوان عليهم ، فإن ذلك مما لا يحبه الله من جهة ولو كان واقعا على من كفروا به وجحدوه كما قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة:١٩٠) ، ولما فيه – من جهة أخرى– من العجب والاتكال على النفس والوثوق بالقوة ، وهو نوع من البغى لا ينبغى لما فيه من احتقار الأعداء والاستهانة بهم ، وهو يخالف الاحتياط والحزم ويضيع النصر المأمول ، وقد عاب الله تعالى ذلك من المؤمنين فى قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (التوبة ٢٥) ، ولم يرضه لهم ؛ إذ مهما كان حال المتقاتلين فإنه لا يعلم ما يؤول إليه أمر اللقاء بينهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولهذا يوجه الرسول ﷺ المؤمنين إلى هذا المعنى العظيم فيقول : «لا تمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» (١٢) ، وقد التزم الصحابة رضوان الله عليهم توجيهه ﷺ فى كل لقاءاتهم ، فهذا على بن أبى طالب – وهو من نعلم فروسية وشجاعة – لم يكن يبدأ أحدا بقتال أبدا – أو يسعى إليه – وله عنه مندوحة ، ويقول لابنه الحسن : « لا تدعُوَنَّ أحدا إلى المبارزة ، وإن دعيت إليها فأجب فإن الداعى إليها باغ والباغى مصروع » (١٣).

وليس معنى هذا أن يظل المسلمون مستكينين – لا حول لهم ولا إرادة – حتى يتلقوا هجوم أعدائهم عليهم ، بل إذا علموا بعزم أعدائهم على قتالهم وإصرارهم على ذلك لم يمهلوهم إليه ، وإنما يسرعون إليهم ويفاجئونهم بالهجوم عليهم ويباغتونهم بالضربة الأولى القاصمة التى تختل لها صفوفهم وتفسد عليهم تدبيرهم ، ولما لذلك من التأثير المعنوى من رعب الأعداء وإضعاف عزائمهم فتسهل هزيمتهم والقضاء عليهم.

ثانيا : المباغتة والهجوم الدفاعى :

يقوم منطق القتال فى الإسلام – وكما علمنا القرآن الكريم – لإحراز النصر من أقرب طريق – على ما يسمى « استراتيجية» الدفاع أو جهاد الدفع الذى لا يبدأ فيه المسلمون هجوما أو اعتداء على أعدائهم ، وهو ما تنص عليه آيات كثيرة فى هذا الشأن (١٤) ، ويفهم من روح الشريعة ومقاصدها التى تحرص على حياة النفوس البشرية ابتداء من النفس الواحدة التى يكون فى إهدارها إهدار للحياة البشرية كلها ؛ لأنه « مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾(المائدة: ٣٢) ، ولأن القتل والقتال كريه للنفس البشرية ولا يقل خطورة وفحشا عن الإفساد فى الأرض وتخريبها ، والتى ما خلق الإنسان إلا لعمارتها وإنماء الحياة فيها فلم يفتأ الإسلام يحذر أتباعه من التورط فى هذه العلاقة السلبية بين بنى الإنسان .

غير أن هذا الخيار « الاستراتيجى» كثيرا ما يصطدم – برغم حرص أصحابه عليه – بحرص أعداء الإنسانية الشديد على الاعتداء والبغى على غيرهم ، وإصرارهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الإفساد فى الأرض والاستئثار بمقدرتها وحدهم ونفى الآخر وعم اعتباره بالكلية ، وحين تتجمع سحب هذا التوجه لدى هؤلاء المفسدين فى الأرض ويتيقن المسلمون من ذلك – وهو ما يعد بحد ذاته أو التلويح والتهديد به عدوانا – فلا مناص أمامهم إلا مقابلة هذا العدوان أو المبادرة لاجهاضه وإحباطه ، مما يتصوره البعض بأنه هجوم ابتداء ، أو اعتداء لا مبرر له أو مناقضة لمنطق الإسلام فى جهاد الدفع وتخطيطه البعيد وسياسته العامة للقتال .

والحق أن هناك فارقا ثابتا بين هذا التخطيط « الاستراتيجى» البعيد والسياسة العامة للقتال وبين التخطيط التنفيذى للقتال ، فمع ثبات هذا الخط العام فى «استراتيجية» الدفاع قد يكون الهجوم – هنا – أحسن وسيلة للدفاع ، وهو فى الحقيقة دفاع وإن بدا فى شكله هجوما ، فهو « هجوم دفاعى أو دفاع هجومى» تتم فيه مباغتة العدو وعدم انتظار ضربته الأولى ، ثم الرد عليه ، بل مفاجأته ، ونقل ساحة القتال إلى أرضه وعقر داره .

ومن عجب أن القرآن الكريم يعلمنا بطريقة عملية وعلى لسان رجلين صالحين من بنى إسرائيل منهج المفأجاة وطريقة الاقتحام والالتحام السريع الذى تشل معه إرادة الخصم ويتعطل تفكيره ، فما يتنبه إلا وقد أحيط به ودخلت عليه دورة من أقطارها ، ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾(المائدة: ٢٣).

وقد يقال هنا إن المباغتة والمفاجأة مبادرة بالعدوان ، ولما يبدأ به الأعداء وهو مما نهى الله تعالى عنه بقوله : «ولا تعتدوا» (البقرة:١٩٠) ، ولقد ظن ذلك فعلا بعض الباحثين باعتبار أن موجب القتال عندهم لا يتحقق إلا بوقوع عدوان فعلى من الأعداء، وهذا وإن كان حقا لكنه ليس الحق كله ، فإن موجب القتال كما يتحقق بوقوع العدوان الفعلى على المسلمين يتحقق كذلك بظهور قصد العدوان الذى يتطور إلى الكيد والتخطيط وينتهى بالمباغتة العدوانية ، فإذا تبين هذا القصد لدى الأعداء بأدلته الثابتة ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أفمن حق المسلمين أن يبغتوهم بالقتال أم أن عليهم أن ينتظروا أعداءهم حتى يتجاوزوا القصد إلى التخطيط ثم الهجوم الفعلى ؟ .

وظهور القصد العدوانى يكفى وحده لإعطاء المسلمين حق التصدى بل الهجوم على من بيتوا فى أنفسهم هذا القصد شريطة أن تستبين دلائله[١٥]، وهذا ما كان رسول ﷺ يفعلـه يسابق بذلك كيد المشركين ومن معهم من الأعداء كى يفوت عليهم غرضهم فيما يبغتهم به .

وهـذا هو ما ينبغى أن يفهم به تصرفه ﷺ فى غزوات بنى المصطلق وخيبر ومؤتـة وغيرها [١٦] ، الذى استشكل على كثير من الباحثين ، وانتهوا فى فمهمهم له على أنه قتال لموجب آخر غير العدوان ، بل لمجرد الكفر – مثلا – أو أنه إغارة على الآمنيـن دون موجب من قتال أو عدوان ، وهذا الفهم – كما نرى – سقيم ، وضرب من التفكير عجيب ، فأى منطق هذا الذى يفرض علىّ أن لا أحرك ساكنا تجاه من أراه يجهـز للعـدوان علـىّ ويرسم لذلك الخطط ويجرى الاتصالات حتى إذا أحكم خطته وتدبـيره وامـتلك زمـام المبادأة آن لى عندئذ فقط أن أنهض فأصد العدوان إن كان بوسعى ذلك [١٧].

وهكـذا لا نـرى فى التزام منطق الدفاع « الاستراتيجى» تناقضا مع التنفيذ الهجومـى، والـذى نُدبـت إلـيه الآيـة الكريمة ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْـعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً* الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِـي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّـيْطَانِ كَـانَ ضَـعِيفاً﴾ (النساء:٧٥-٧٦) ، بل ربما كان فى هذا التنفيذ الهجومى المباغـت ما يحقق النصر دون تضحيات كثيرة أو إراقة دماء وعنف مما يكره القتال بسـببها ، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَـى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢١٦) ، كما يحقـق الحماية والحرية للناس كل الناس واحترام عهودهم ومقدراتهم ، طالما كان هذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهجـــوم الدفاعى أمينا وعادلا ، لا يعترف بغدر ولا يقر بعدوان ، ولا يتوجه أصحابه إليه بروح طغيان أو تجبر ولا عشق للحرب وسفك الدماء ، إنما ينهضون إليه دفاعا عن حق لا يجدون غير هذا الهجوم الدفاعى إلى إحقاقه سبيلا [١٨].

وكان ﷺ لذلك لا يضيع وقتا فى انتظار ما يختاره أعداؤه لإضعاف أنصاره ، ولا يـــترك زمـــان الحـــركة والمبادرة فى أيدى أعدائه ، فلما علم أن بنى المصطلق يحرضون عليه ويريدون قتله فاجأهم وأخذهم على غرة ، وفوجئ القوم بقواتهم تُهاجَم عـــند مـــاء المريســـيع القريب منهم ، فسقط فى أيديهم ولم يجدوا طريقا لخلاصهم ، وعندما قرر ﷺ غزو خيبر خرج إليهم بفرسانه ومقاتليه فى سرعة خاطفة حتى فوجئ به أهل خيبر ، فهوبوا وتصايحوا ، واستبشر ﷺ من الذعر والرعب الذى وجدهم عليه، فقال : « الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين »[١٩].

وبهـــذا الهجـــوم الدفاعى المباغت والمفاجئ فتحت مكة بعد أن نقضت قريش معـــاهدة الحديبـــية ، وكشـــفت عن إصرارها على الغدر والعدوان ، فلم يترددﷺ عن مفاجأة قريش وحصار مكة وإعلانها بالتسليم والسلام أو يدخل المسلمون مكة بالسلام ، وكـــان أن نجح هذا التصرف فى إحراز أكبر نصر للإسلام دون عنف أو إراقة دماء مـــن جهة ، كما كان – من جهة أخرى – نصرا للإنسانية بعامة وحقوق الإنسان أى إنســـان ، فلم يتحرك المسلمون لفتح مكة دفاعا عن مصالح قريبة خاصة بهم ، وإنما الثابـــت أن قبـــيلة غـــير مسلمة كانت تحتمى بتحالفها مع المسلمين [٢٠]، ثم تعرضت لعدوان قريش ، فتحرك محمد ﷺ والمسلمون إلى فتح مكة دفاعا عن مبدأ إنسانى عام ، وهو إلزام الأقوياء باحترام المعاهدات والخضوع لمنطق الحق والعدل والسلام ، حتى لا تصبح المعاهدات « حبرا على ورق» كما هو حال الحاضر الإنسانى اليوم[٢١].

ولو راجعنا صفحات التاريخ لوجدنا أن الانتصارات التى أحرزها المسلمون لم ينصروا فيها على أعدائهم إلا بمقدار حرصهم على مفاجأتهم ومباغتتهم اتباعا لما كان علـــيه الرسول ﷺ فى حروبه وحرصه على ذلك وإفادتهم من هدى القرآن الكريم فى هذا الشأن ، وما انتصارهم فى حرب العاشر من رمضان الأخيرة فى هذا العصر منا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ببعيد ، وهو النصر الذى أعد له بتدبير محكم ، واتخذت له كل الوسائل الممكنة مما ذكرناه قبل – ونذكره وكان التمثل لتوجيهات القرآن الكريم وتنفيذ الرسول ﷺ وصحابته له تمثلا رائعا وبخاصة فى جانب مباغته الأعداء بعد تضليلهم والتمويه عليهم ، فاستحقوا بذلك تنزل النصر عليهم وتحقق وعد الله لهم .

ثالثا : فهم طبيعة الأعداء واستثمار نقائصهم :

ومن عوامل النصر في تخطيط المعركة وتصميمها ما يعلمنا القرآن الكريم من ضرورة التعامل الذكى مع نفسيات الأعداء وطبائعهم الغريبة التى كشف عنها القرآن الكريم ليبصر المؤمنين بمواطن ضعفهم واستغلالها فى تحقيق النصر عليهم – وبخاصة هذا العدو التقليدى القديم الجديد والذى ما فتئ ينفث سخائمه وينضح بسيئاته التى طبع عليها – ونبأنا الله من أخبارهم وعرفنا طبائعهم ونفوسهم الشريرة وجبنهم وذلهم الذى لا ينفك عنهم أبدا ، وقد أكثر القرآن الكريم من تأكيد هذه الحقيقة المقررة عن اليهود ودعمها بالدلائل المادية والتاريخية الشاهدة على تأصل الجبن والحرص فى نفوسهم وعمومه فى كل أجيالهم .

لقد أسرف بنو إسرائيل بمعاصيهم وذنوبهم الفاحشة ولم يرعوا تكريم الله لهم وتفضيلهم على أهل زمانهم فهووا بضلالاتهم الغلاظ ، وأورثهم ذلك ذلا رهيبا لغير الله عز وجل وخوفا داخليا رعيبا ، وقد تنشأ لهم دول ويملكون ما لا يملك غيرهم ويسكنون القلاع والحصون ، ولكن العلة تنبعث من داخلهم فيتلفتون تلفت الخائف المذعور أو الهارب الموتور ، وطبعتهم هذه العلة بالذل والانكسار ، وقد سجل القرآن الكريم عليهم ذلك الذى تفردوا به بين الأمم ، ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾(البقرة: ٦١) ، ويؤكد القرآن الكريم ذل هؤلاء ومسكنتهم فى كل مكان يحلون فيه ، وفى كل قتال يشتبكون فيه مع المؤمنين .

ومن عهد موسى عليه السلام وهم أمثولة الدهر فى الجبن والخور لما رفضوا دخول الأرض المقدسة واقتراحهم على نبيهم ألا يدخلوها حتى يخرج منها أهلوها ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحين دلتهم القلة المؤمنة على طريقة غلبهم الجبارين باقتحام الأبواب عليهم ما زادهم ذلك إلا نكوصا وضنا بالحياة حتى يئس منهم رسولهم ، وجرف طوفان الجبن كل شيء لدى هذه النفسية المتهالكة الفاسقة[٢٢] .

ومن بعد موسى عليه السلام بقرون وبعد عقوبة التيه ، شاعت بينهم الشرور والآثام فسلط الله عليهم من أذاقهم الذل والهوان فطلبوا من نبئ لهم أن يعين لهم ملكا يقاتلون معه اعداءهم ، ولكنه ارتاب فى صدقهم وصارحهم بجبنهم المتأصل فيهم وصدقت شكوكه فيهم ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٦) .

وفى صدر الإسلام حيث كان لهم وجود متميز فى الجزيرة العربية ما رعوا هذه المكانة وغلب عليهم طبعهم فغدروا بالنبى ﷺ وأصحابه ، وانتهى صدامهم بالمسلمين إلى إجلائهم من الجزيرة وسجل القرآن الكريم عنهم في هذا العهد جملة من الحقائق كشف عن طبيعتهم لتصبح قواعد ومعايير للتعامل معهم إلى يوم الدين منها :

١- أنهم جبناء لا يثبتون فى صدام صريح أو لقاء مكشوف ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾ (آل عمران:١١١).

٢- وهم يعتمدون كلية على الوسائل المادية حتى الكفر ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾(الحشر: ٢) .

٣- وهم يخافون القوة المؤمنة أكثر من خوفهم الله عز وجل ﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ (الحشر:١٣).

٤- وهم يسترون جبنهم بالقلاع والحصون التى تتخلع قلوبهم خارجها ﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾(الحشر:١٤).

٥- وهم فى حقيقة أمرهم فى تناكر وشتات برغم ما يتظاهرون به ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾(الحشر: ١٤) ، وكل من هذه تمثل مقتلا من مقاتلهم وعاملا فاصلا في هزيمتهم كشفه القرآن الكريم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للمؤمنين لو أحسنوا التلقى عن ربهم وكتابه العظيم ، أو جربوا عمليا تصديقهم لله وترفعهم عن الهوان ومنحهم النصر مجانا لأعدائهم ، كما لو كانوا هم الذين تحدث الله عن جبنهم وسجل هذه الحقائق عنهم وليس عن أعدائهم .

فهذه صفات راسخة في الشخصية اليهودية – قديما وحديثا – وحقائق عن طبيعتها قررها القرآن الكريم ، ومن هدى هذه الحقائق لا تحتاج الأمة فى الإفادة منها إلا إلى إرادة وتصميم أكثر من حاجتها إلى ترسانات ومذخورات من العتاد والقوى ، والتجارب من حولنا تؤكد هذا وتصدقه حيث لا ينال من هؤلاء إلا من فقهوا هذا عن الله ، واستعلوا بإرادتهم وتصميمهم على كل القوى المعطلة من حولهم أو المعوقة لهم ، وأفادوا من النمط القرآنى الذى يوجب اقتحام الأبواب والالتحام المباشر بالأعداء حيث يعز استدراجهم خارج حصونهم وقلاعهم ، فإذا الحصون قد تهاوت والقلاع تحطمت وانهار معهما جيل « الصبرا» أو الجيش الذى لا يقهر وسائر أساطيرهم ومزاعمهم الباطلة ، التى ما ظهرت إلا بعد أن اتخذ المسلمون هذا القرآن مهجورا.

نعم لو نقلت المعركة بين المسلمين وأعدائهم إلى داخل تجمعاتهم ، وهُدِّد اليهود فى أثمن ما يخصهم ويحرصون عليه لا ختلت جوانب هذا المجتمع المتبجح وتفجر الجبن اليهودى على حقيقته بتبدد الأمن النفسى عندهم ، ومع الأسى والأسف لا يفيد المسلمون كثيرا من هذا الهدى القرآنى ، وما تزال كثير من معاركهم تدور بعيدا عن هذه الساحة الربانية حيث نسمع صخبا وصراخا كثيرا ولا نرى طحنا ولو قليلا[٢٣].

فقاعدة الاقتحام ودخول الأبواب القرآنية التى تردد ذكرها كثيرا هى قاعدة فى علم القلوب كما هى قاعدة فى علم الحروب ، تقول القاعدة أقدموا واقتحموا فمتى دخلتم على القوم فى عقر دارهم انكسرت قلوبهم بقدر ما تقوى قلوبكم ، وشعروا بالهزيمة في أرواحهم وكتبت لكم الغلبة عليهم .

ونصيحة الرجلين الصالحين بهذه القاعدة خبرة عسكرية بالغة القيمة فوق أنها خبرة نفسية وإيمانية عظيمة لا يفيد منها حقا إلا المؤمنون الذين لا يخافون إلا من الله ولا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يركـنون إلا إليه ، فخوف الرجلين الصالحين لله وحده – فى موطن الخوف من الناس – أنشأ لهما استهانة بالجبارين وشجاعة في وجه الخطر الموهوم ، والذى يخاف الله لا يخاف أحدا بعده ولا شيئا سواه ، فكيف به إذا كان يرجو من الله نصره الموعود ؟.

وقـد يحدث لهؤلاء الأعداء الأذلاء أن يستعلوا – لأمر ما وحكمة لله يعلمها – فـيمدهم الله بأسـباب منه أو من بعض الناس ليتم مراد الله فى أرضه وخلقه ، فهم لا يرفعون رؤوسهم إلا بحبل «ما» ، وقد رأينا مصداق ذلك فى حماية الطغيان العالمى، قال تعالى : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾(آل عمـران: ١١٢)، فهـل يمكـن للمسلمين وقادتهم اليوم وأولى الأمر فيهم من العلماء والأمراء أن يحولوا بين أعدائهم وهذا الحبل الذى يستعلون به على العالمين ؟ .

والأمـر جد يسير ، وعودة المسلمين إلى كتاب ربهم وهديه ، وإلى طاعة الله والسير على منهجه وحده دون مناهج الشياطين من شرق وغرب كفيل بقطع هذا لحبل مـن الله ، فما نزل من هزائم بالمؤمنين على أيدى أعدائهم إنما هو من عند أنفسهم ، ومن استمرائهم المعاصى ، والشرود عن تعاليم الله ، فكان هذا الجبل من الله لأعدائهم لـيؤدب المؤمنين ويعيدهم إلى منهجه وتعاليمه ، وإذا عاد المؤمنون إلى منهاج ربهم وتعاليم دينهم أورثهم الله عزا لا يذلون معه إلى غير الله – كما هو حالهم – ، ومن ثم تتهاوى عروش الطغاة والجبابرة الذين يمدون أعداءهم بسبب أخر [٢٤] ، ويعود هؤلاء إلـى صورتهم التاريخية التى قررها القرآن الكريم تائهين مشردين خائفين مذعورين تغشـاهم « الذلة والمسكنة » ، ويفضحهم الجبن والخور الذى يسترونه اليوم بالخديعة والمكر تارة أو بالوحشة والضراوة تارة أخرى .

وهل يفقه المسلمون هذه النفسية العجيبة التى تقاعست عن مجرد تمنى الموت عندما كذبت على الله وعلى الناس حين ادعت تفردها بولاية الله واحتكارها الجنة من دون الـناس ، فدعى القرآن الكريم أصحابها وندبهم أن يتمنوا الموت ليفضوا إلى نعيم الجـنة إن كـانوا صادقين – هل يفقه المسلمون عن عدوهم هذا كله وحرصهم الشديد علـى الحـياة – أى حياة – أكثر من حرص المشركين الذين لا يؤمنون بحياة وراء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دنياهم[٢٥]؟ ، فهم لذلك يخافون القوة المؤمنة خوفا رهيبا أكثر من خوفهم الله عز وجل ﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ (الحشر:١٣) ، وماذا فى وسع هؤلاء أن يصنعوه وهذا حالهم مع ما يعرفونه من عشق المؤمنين للموت والاستشهاد أكثر من عشقهم هم وحبهم للحياة ؟ ، ماذا فى ~~وسعهم~~ إلا أن يستروا جبنهم بغطاء كثيف من القلاع والحصون يظهرون به للناس على غير ما هم عليه من تمزق وتناكر ﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ (الحشر:١٤) .

ومن ثم وجدنا الله ينهى المسلمين ويحذرهم أن يلم بهم الوهن والضعف ، أو يستولى عليهم الكسل والخمول فيكتفوا فى قتال أعدائهم بمجرد الدفع والرد على ما يلحقهم من أعدائهم ، بل عليهم بالعزيمة وعلو الهمة فى ملاحقتهم والهجوم عليهم ؛ ذلك أن الذى يلتزم الدفاع مطلقا منتظرا وقوع العدوان عليه تضعف نفسه وتهن عزيمته ، الذى يوطن نفسه على المهاجمة تعلو همته وتشتد عزيمته ، قال تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء:١٠٤) ، فإذا استويتم معهم فى آلام الأبدان فقد فضلتموهم بقوة الوجدان وجرأة الجنان والثقة بحسن العاقبة ، فأنتم أجدر بالمهاجمة فلا تهنوا بالتزام خطة المدافعة [٢٦]، أو الركون إلى الذين ظلموا ومسالمتهم وخداع أنفسكم بعدم جدوى قتالهم ومنازلتهم ، وقد وعدكم الله النصر ووعد الله حق وصدق.

وقد وجدنا ذلك كلما التقى الحق والباطل ، وكم من مرة وقف الباطل مدججا بالسلاح أمام الحق الأعزل ، ومع ذلك كان الباطل يحتشد احتشاد المرعوب ويرتجف من كل حركة وهو فى حشده المسلح ، فأما إذا أقدم الحق وهاجم فهو الذعر والفزع والشتات والاضطراب فى صفوف الباطل تصديقا لوعد الله ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ *سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ) (آل عمران:١٥٠-١٥١)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رابعا : إدارة القتال بالنظام والتراص ومشاركة القادة فيه :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (الصف:٤) ، تقرر الآية الكريمة حب الله ورضاءه عن الذين يقاتلون فى سبيله بنظام وحكمة صافين أنفسهم وهم كالبنيان المرصوص الذى يحمى بعضه بعضا؛ لأنه متماسك لا فرجة فيه ولا خلل ، وفي ذلك إشارة إلىُ إحكام أمر القتال ومقابلة العدو بقلوب مطمئنة وأجسام ثابتة ثبوت البنيان الشامخ ، ولمحاربة فى كل الجبهات وميادين القتال ومستوياته بكل القوى بأنواعها المتاحة والمعدة قبلا ، حيث تلقى كل قوة بثقلها فى المعركة في آن واحد فيحمى بعضها بعضا ، ولا يجد العدو ثغرة في ميدان المعركة ينفذ منها إلى إضعاف قوتهم أو النيل منها .

ومتى خاض المؤمنون معركتهم على هذا النحو من النظام والتراص والبناء المتماسك – أدخلوا الرعب والفزع فى صفوت أعدائهم ، فسرعان ما تتها رجبهتهم وتتحطم صفوفهم وتحل بهم الهزيمة ، وقد أثبتت تجارب الحياة ووقائع التاريخ أن النجاح والانتصار فى كل شيء إنما هو حليف النظام والتنظيم والإحكام والتدبير ، وكثيرا ما يعلو الباطل لذلك ويزهو ، ويخفق الحق ويضيع لافتقاد أصحابه هذا العامل المهم فى تحقيق النصر والنجاح ، ولا يكون الفشل والإخفاق إلا من نصيب هؤلاء المهملين للنظام والاصطفاف الذى يحبه الله ، أو كما قال القائل :

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم .. ولاسراة إذا جهالهم سادوا (٢٧)

وهذا التوجه الجماعى المنظم والمحكم عند ملاقاة الأعداء إنما يحبه الله أولا لأن هذا هو روح الإسلام وقيامه أصلا ، فلا يتصور الإسلام قائما إلا فى محيط جماعة منظمة ذات ارتباط ونظام وهدف جماعى ، ومن ثم فإن آداب الإسلام وقواعده ونظمه كلها مصوغة على هذا الأساس ، نعم إن الإسلام عنى بضمير الفرد وتبعته الذاتية ، ولكن هذا الاعتناء مؤسس على أن الفرد المسؤول يعيش فى جماعة تتحرك وتعمل طبقا لمنهج إلهى ، ولم يجئ الإسلام لينعزل بالمؤمنين به كل فى خاصية نفسه، إنما جاء ليحكم البشر ويهيمن على كل نشاط فردى وجماعى فيها ، والبشرية لا تعيش

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أفرادا بل جماعات وأمما ، ولهذا يحب الله الذين يقاتلون فى سبيله وهم على هذا الحال من النظام والإحكام وروح الجماعة والتوحد والتراص الذى يساند فيه الأفراد ويشد بعضهم بعضا .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يحب الله هذا التوجه الجماعى المنظم والمحكم فى ملاقاة الأعداء وقتالهم ؛ لأن الإسلام وهو يواجه البشرية بالمنهج الإلهى فى صورته الأخيرة تقاومه قوى كثيرة تقوم على قيم باطلة وزائفة لا تحب لهذا المنهج أن يستقر فى الأرض ؛ لأنه يسلبها كثيرا من الامتيازات فتقف بكلكلها في طريقه وشرها عارم وباطلها متبجح تجيش له الجيوش وتؤلب عليه تجمعات ضخمة لأنها تعمل بوحى من الشيطان وتحت ولايته وإمراته ، ذلك الشيطان الذى لا يفتأ يناهض الحق وأهله ويسعى لتدميره وتقويضه ، وهو جنوده وأعوانه الذين يؤدون رسالته الشيطانية هذه ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (الاسراء:٦٤) ، ولابد لجنود الإسلام أن يواجهوا هؤلاء صفا سويا منتظما ، راسخا ومتينا.

ولهذه الضرورة من التكافؤ فى المقابلة يحب الله للمؤمنين مواجهتهم لأعدائهم على هذه الصورة ، وهى صورة ترسم لهم طبيعة دينهم وتحضهم على التضامن والتماسك الذى كشف عنه التعبير القرآنى المبدع ﴿ صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾ ، بنيان تتعاون لبناته وتتضام وتتماسك ، تؤدى كل لبنة دورها وتسد ثغرتها ؛ لأن البنيان كله ينهار إذا تخلت منه لبنة عن مكانها – تقدمت أو تأخرت – أو لم تمسك بأختها تحتها أو فوقها [٢٨]، ثم إن القتال على هذه الهيئة اليوم من الاصطفاف كصفوف الصلاة وإتمام الصف الأول فالأول وتسوية الصفوف وتراصها وعدم تقدم بعض على بعض فيها هو من أصول العساكر المحمدية النظامية [٢٩] ،ومن المعلوم أن للوسائل حكم المقاصد ، فما يتوصل به إلى تحصيل الاتصاف بذلك مما لا ينبغى أن يتكاسل فى تحصيله [٣٠].

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن هذا النظام والتنظيم ما توجه إليه الآية الكريمة ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة:١٢٣) أى الذين يدنون منكم ويتصل بلادهم ببلادكم ، وجريان ذلك على القاعدة العامة فى تقديم الأقرب على القريب ، والقريب على البعيد فى كل أمور الحياة [٣١] ، وذلك أن القتال شرع لتأمين الدعوة إلى الإسلام وحرية الدين والدفاع عن أهله .

وترجيح البدء بالأقرب فالأقرب معقول من وجوه كثيرة كالحاجة والإمكان والسهولة والنفقة ، فضلا عما أرشدت إليه الآية من أن ترك الأقرب والاشتغال بالأبعد لا يؤمن معه هجوم الأقرب على الأهل والأموال ، وأن فى قتال الأقرب فالأقرب من الأعداء تأمين الحدود وكسر شوكة المعتدين والاطمئنان على سلامة الأمة والأوطان من وراء المحاربين .

فالآية التى معنا وسابقتها ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة:١٢٢) ، إنما تؤكدان على ضرورة توزيع الجهود والتبعات وتنظيم العمل القتالى بين المسلمين بغية إنجاز مهمتهم على نحو محكم ، وإرشادهم إلى الخطط السليمة التى يجب اتباعها فى قتالهم المشروع.

وإذا رجعنا إلى سبب نزول هاتين الآيتين [٣٢] اتضح لنا ذلك حيث نزلتا عندما تزاحم المسلمون فى المدينة واحتشدوا من كل صوب للقتال مع رسول الله ﷺ بعد حملة القرآن الكريم على المتخلفين والقاعدين عن الجهاد والمعتذرين من مرضى القلوب والمنافقين ، وقد تضمنت الآية الأولى إيذانا بعدم ضرورة احتشادهم جميعا فى مواجهة الأخطار ، ونفرتهم كلهم لرد العدوان الخارجى ، وإنما يكفى أن يتناوبوا فيخرج فى كل مرة فرقة من كل طائفة ، ويقسموا أنفسهم فرقتين تضرب إحداهما فى الأرض وتقاتل الأخرى فى سبيل الله ؛ إذ الجهاد – كما هو معروف – لا يكون بالقتال وحده، بل والعمل على توفير الحياة الكريمة للمقاتلين والتزود بما يقوم بالمجتمع كله اقتصاديا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلميا ودينيا ، وهذا هو مجتمع الحرب ومجتمع المعركة فى أسمى صورها وأعلى مراتبها[٣٣].

وهذا التقرير الذى أفادته الآية من عدم ضرورة نفر المؤمنين كلهم مرة واحدة وتنظيم هذا الأمر بين طوائف المجتمع إنما يكون فى غير النفير العام ، أما فى حال النفير العام الذى يفترض كون القتال واجبا عاما على الجميع وفرضا عينيا عليهم ، فمن الضرورى أن تكون الأمة كلها مقاتلة بكل ما تستطيع كما هو الحال فيما يعرف بحالة الطوارئ المعبر عنها فى لسان الشرع بالضرورة ، ودعى فيها القرآن الأمة بأن تنفر كلها خفافا وثقالا ؛ إذ الأمة كلها حينئذ جيش كما يدل عليه توجيه الخطاب إلى المؤمنين عامة فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة:٣٨).

نعم لقد كان فى المسلمين عند نزول الآية من لبى نداء القتال ولم يثاقل إلى الأرض ، ولم يؤثر متاع الدنيا على متاع الآخرة ، غير أن هذا تعليم عام من الله وإرشاد شامل من علام الغيوب لجميع المسلمين فى كل مكان وفى كل عصر ، وإذا كان المسلمون جميعا فى ذلك الوقت لا يصدق عليهم موجب الإنكار فإن أطوار المسلمين التى أعقبت هذا الجيل الأول قد تحقق فيها موجب ذلك الإنكار بالنسبة لجميعهم إلا من عصم الله ، وما عهدنا الحاضر إلا أكبر مظهر من مظاهر التثاقل الذى انضوى تحته جميع المسلمين على اختلاف مواطنهم ومسؤوليهم ، فهو خطاب واقعى لهم جميعا بالنظر إلى ما صاروا إليه من التفرق وشتات الأمر وضعف السلطان ، اثاقلوا إلى الأرض وأخلدوا، ورضوا بالحياة الدنيا من الآخر.[٣٤]

ثم تكمل الآية الثانية قاعدة الحرب وأسلوب تنفيذها فى أرض المعركة ، وترشدهم – كما أشرنا– إلى الخطة العملية التى عليهم أن يترسموها عند نشوب القتال؛ إذ توعز للمسلمين بقتال من حولهم أولا ووجوب البدء – عند الأعداء المناوئين وتسهيلا لسبل الانتصار [٣٥]؛ فمن المعلوم أنه لا يمكن قتال المعادين للأمة فى جميع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البلاد فى زمن واحد ، ولأن ترك الأقرب والاشتغال بقتال الأبعد لا يؤمن معه من الهجوم على الذرارى والضعفاء غير المحاربين من الأمة [٣٦] ، وكأن الآيتين بعموم المنادين فيهما توجه المسلمين جميعا لهذا الفن الحربى ، وهو توجيه مستمر فى البلاد التى تكون محاطة بأعدائها المتربصين بها ليكونوا على استعداد دائم لمواجهتهم ، وليتولى القتال فى كل ناحية من نواحى الأعداء القريبون من هذه الناحية والمقابلون لها؛ لأنهم أعرف بها وأقدر.

لقد ترجم صحابة رسول الله ﷺ بقيادة الصديق رضى الله عنهم هذه الروح النظامية فى التراص والاصطفاف واقعا حيا فى مواجهة الأخطار التى واجهت المسلمين غداة وفاته ﷺ داخل المدينة وخارجها حين تجمع المرتدون من القبائل وجيوش ما نعى الزكاة بغية اقتحام المدينة على أهلها والقضاء على الإسلام ودولته ، والشقة بعيدة بينهم وبين جيش أسامة السائر إلى مشارف الشام ، وسرعان ما جمع الصديق بقايا المسلمين الذين ضمهم المسجد النبوى وشرح لهم خطة دفاعه عن المدينة ورسم لكل منهم واجبه الذى يقوم به أو يموت دونه ، ووزع أفراد هذا الجيش الصغير على ثغرات المدينة ومظان هجوم العدو وجعل المسجد مستودعا يخرج منه المدد إلى الجبهة التى يشتد فيها ضغطه .

وتحركت جيوش الأعراب وأبو بكر فوق ناقته يصول ويجول ، وصراخ التكبير تتجاوب به أصقاع المدينة ووهادها الموحشة ، وخرج المعسكرون من المسجد يشدون أزر المدافعين فى صراعهم طول الليل ، فما طلعت الشمس حتى تنزل نصر الله ونجت المدينة وفر المرتدون .

كسب أبو بكر المعركة فى المدينة بهذا التنظيم الدقيق حتى قفل جيش أسامة ليواجه به الفتنة العارمة خارج المدينة فيعقد أحد عشر لواء لأحد عشر قائدا فى إحدى عشرة جبهة ، ويراقب القتال بضعة عشر شهرا فى هذه الميادين لا تنتهى الجيوش فيها من قتال إلا لتستأنف غيره حتى جاء أخيرا نصر الله وهزم المرتدون شر هزيمة [٣٧].

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهكـذا تكون مشاركة القيادة وقدوتها فى القتال وأداؤها لواجباتها القيادية التى يأتى فى مقدمتها ما رأيناه من التنظيم والاصطاف والتقسيم والتراص ، والتمثل الكامل لمـا خاطب الله به نبيه ﷺ فى حكايته لفعله من ذلك مع الصحابة في غزوة أحد ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران:١٢١)

ومـن هـذه الواجبات القيادية صدق عطاء القائد الذي يسمو به فوق شهوات المناصـب وبريق الظهور ، ومن فهو لا يسعى إلي القيادة ، وإن أتته كانت في نظره تكليفا لا تشريفا ، فهو أي موقع يقوم بواجبه إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كـان فـي الساقة كان في الساقة ،و لاشك أن القيادة في القتال هي أولي القيادات بهذا الاحتـياط فـي التولية والاختبار حتي تكون ثقة المقاتلين بها صادقة واطمئنانهم إليها وطيدا ، وهو ما يسرع بنجاح المسعى وكفالة النصر .

والـتزاما بهذه النظرة إلي القيادة القتالية يكون القائد درعا لجنوده وسباقا إلي المخاطـر ليشـغل بذلك حماسهم كما قال ﷺ : إنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقي بـه"[٣٨] ، وكـان ﷺ أشجع الناس وأسبقهم إلي المخاطر ،كما كان يترك مقر قيادته ويندفع إلى مقدمة الصفوف حتي إذا زحف المقاتلون هتف بالمسلمين« قوموا إلي الجنة عرضها السموات والأرض »[٣٩]

وقـد نوه القرآن الكريم بدور القيادة في خطابه للرسول ﷺ وهو يحكى ما كان مـنه في أحد في الآية المذكورة والرسول في صدر الصفوف المقاتلة من البداية يحدد لهـم مواقعهـم فـي المـيدان خطوة بخطوة ويجعل بعضهم في الميمنة وبعضهم في الميسـرة، ويسـند للرماة المهمة الكبرى في النضج بالنبال عن المقاتلين ويجعلهم في أعلـى الجـبل لاستشراف ساحة المعركة والاطلاع على كل ما يدور ويجرى فيها ، وربمـا انهـزم الجـنود أو تـراجعوا فيبقي ثبات القائد وصموده صخرة يثوب إليها المخلصـون الشجعان ويعودون إلي الثبات من حولها ،كما قال على بن أبي طالب ﷺ: «كنا إذا حمي البأس اتقينا برسول الله ﷺوهو أقربنا إلى العدو »[٤٠]

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن مشاركة القيادة كذلك تحمل القائد – مثل جنوده – نصيبه من شدائد القتال وأعبائه وإن كانت مرهقة وشاقة كما حدث في حفر الخندق حول المدينة إذ أصر ﷺ على حمل التراب على ظهره ، وكان في بدر يعتقب هو وأبو لبابة وعلى بن أبي طالب رضى الله عنهما بعيرا لهم ،فقالا له : نحن نمشى عنك فقال :« ما أنتما بأقوى مني ،ولا أنا بأغني عن الأجر منكما » (٤١).

وأما اقتراب القائد من جنوده وتوثيق صلته بهم والحدب عليهم والسؤال عن أحوالهم ورعايتهم فهو أعلى أنواع المشاركة ، وربما إيثارهم على نفسه وافتداؤهم بها، وبخاصة من يصابون في المعارك ممن هم أولي بالعطف والرعاية والاهتمام ، ومن شأن هذا التعاطف بين القائد وجنده ، ورضا كل منهم عن الآخر والحب الذي ينشده الإسلام للقيادة من الأمة (٤٢) ،وأن يؤتي ثمره الطيبة نصرا مؤزرا (٤٣)،فأين هذا مما يعيشه المسلمون اليوم تحت إمرة قادتهم الذين لا يفتأون يقبلون أعتاب أعدائهم ، ويتلمسون رضاهم وعطفهم ،بل ويتسولون بقاءهم وأقواتهم من خزائنهم ،وقصارى ما يتشجع الشجاع منهم أن يهمس لأعداء البشرية بالأسف ، ويتعهد للمعتدين القاتلين ألا يرد عدوانهم ليمنحوه السماح والأمان حتي يتلافى عنف المقاومين ، ويتعقبهم ليقدمهم لأعداء الأمة قربانا ومحبة وإيمانا بالإخاء العالمي ،بل استخذاء وهوانا مما يأباه الإسلام ويتواعد أصحابه عليه بسوء العاقبة والمصير وكأن هؤلاء من عناهم الله بقوله تعالي : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (المائدة:٥٢) (٤٤)

هذا ومن تمام تنظيم القتال وإدارته يقظة المقاتلين البالغة ، وعدم غفلتهم أبدا عن أدوات قتالهم ، أو إهمال عنايتهم بها ، وحمايتها من غدر الأعداء ، وليكن شأن مقدرات الأمة الحربية كشأن مقدراتها الاقتصادية تماما ؛ لأن الغفلة عن أي منهما أو الانشغال عنه – ولو بأقدس الشعائر الإسلامية – وهو ما يتمناه الأعداء ويودونه للنيل من المسلمين – ينذر بأوخم العواقب ، وهذا وذاك مما نبه عليه الله سبحانه وتعالي في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قوله : ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾(النساء: الآية١٠٢).

وليس أخطر على المقاتلين من غفلتهم عن أسلحتهم أو امتلاكها مع عدم استعمالها أو إهمالها وعدم حمايتها وتركها عارية ومعرضة لضربها وتدميرها ، وكثيرا ما يؤدي الإهمال وقلة الحرص إلي إلقاء المقاتل سلاحه وهو يحسب أنه في أمان فيبغته العدو ويتمكن من إنزال الهزيمة به ، ومن روائع القرآن الكريم هنا تنبيهه على الأمر ،وتكرير التنبيه على ذلك وألا يشغل المسلمين شيء حتي صلاتهم عن حماية أسلحتهم وأمتعهم أو إغفالهم أيا منها ، وتعليل هذا التأكيد بهذا التحذير الخطير ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾(النساء: الآية١٠٢) (٤٥)

قال تعالي :﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (لأنفال:٥٧)، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾(محمد: ٤)

وهذا التوجيه وإن كان في كثير منه موجها إلي الرسول ﷺ فإنه موجه إلي الأمة كلها من ورائه ، وما أشبه الليلة بالبارحة ، وكأن ما يحدث اليوم للأمة من أعدي أعدائها هو بعينه ما كان يعانيه ﷺ من المشركين واليهود في زمانه ونقصهم الدائم لعهدهم معه ، ومن ثم تنزلت الآيات على هذا الواقع الحي في زمنه ﷺ والمرشح لتكراره دائما في القابل من الزمان حيث طبيعة الكفار الشاغبين على الإيمان وأهله هي هي لا تتغير ولا تتبدل .

فهؤلاء الذين لا يستطيع أحد أن يطمئن إلي عهدهم وجوارهم جزاؤهم هو حرمانهم الأمن كما حرموا غيرهم الأمن ، وجزاؤهم هو تخويفهم والضرب على أيديهم بشدة لا ترهبهم وحدهم ، إنما ترهب من يتسامع بهم ممن وراءهم من أمثالهم ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والرسول ﷺ والمسلمون من بعده مأمورون إذا التقوا بأمثال هؤلاء في القتال أن يصنعوا بهم ذلك الصنيع [٤٦] ، فلا يكون ذلك قضاء على عناصر الإفساد في الأرض فحسب ،بل ردعا كذلك لمن يرصدون ثغرات المسلمين ويترقبون الفرص ويتحينون الظروف للنفاذ منها والوصول إلي مطامعهم .

وليس من شك أن تنفيذ الأمر بالضرب على هذا النحو إنما يؤدي إلي الغاية منه وهو كسر شوكة وقهرهم المعبر عنه بإثخانهم وتحطيم قوتهم وخطرهم ، كما أن التنكيل بهم لا يقضى عليهم ويمكن منهم فحسب بل ليكونوا به سببا لشرود من وراءهم من الأعداء وتفرقهم اعتبارا بحالهم ، وهذه الطبيعة لدي هؤلاء لم تغيرها القرون ، ونشهد اليوم حين امتلكوا القوة تحركوا في كل اتجاه وضربوا بكل سلاح ، وما دامت العصا التي تردع غائبة فلا شيء يمنع غزوهم وسطورهم وتبجحهم وصياحهم .ونقد وصف القرآن هذا المسلك الخسيس بأنه سلوك حيوانات شرسة لا آدميين مكرمين ،قال تعالي :﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾ (الأنفال:٥٥ -٥٦)، وعلاج هذه القطعان الخؤون لا يكون بالهوادة والرفق أو المهادنة والملاينة ، وإنما بالضرب الشديد لمن يتحرك منهم بالغدر ضربا يتسامع به بعيدهم وتنفض به جموعهم وخونتهم [٤٧] .

وإنما أمر الله رسوله ﷺ بالإثخان في هؤلاء الأعداء الذين تكررت مسالمته لهم وتجديده لعهدهم بعد نقضهم به ، لئلا ينخدع مرة أخرى بكذبهم لما جبلّ عليه من الرحمة وحب السلم، وهؤلاء الأعداء من اليهود أوهموه المرة بعد المرة أنهم يرغبون في السلم معتذرين عن نقضهم للعهد ، وكانوا في ذلك مخادعين ، وإنما كان هذا الإثخان فيهم والغلظة عليهم وتشريد من خلفهم بغرض تربيتهم وليس حبا في الحرب ولا طمعا في غنائمها ، ويدل على ذلك تذليل الآية وتعليلها لهذا الأمر بقوله تعالي : ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لعل من خلفهم من الأعداء يتعظون ويعتبرون فلا يقدمون على القتال ، ولا يعود المعاهد منهم لنقض العهد ونكث الأيمان [٤٨] .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهـذا الإثخان والإغلاظ والإرهاب والإخافة في قتال الكافرين هو المأمور به قوله تعالي :﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾(التوبة: ٧٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة:١٢٣)، أي قاتلوهم بشراسة لا هوادة فيها وعنف لا تميع فيه وقسوة لا تراجع عنها ، وهذه الغلظة والشدة في زمن الحرب مما تقتضيه المصلحة لما فيهما من الزجر والمنع من المفاسد والشرور من جهة ،وليتأكد الأعداء من جرأة المسلمين وإقدامهم وشجاعتهم وتضحياتهم وصبرهم وعنفهم من جهة أخرى ، ويتسامعوا بذلك ويتحدثوا به هم ومن وراءهم فيكون ذلك عاملا آخر من عوامل إحراز النصر وهزيمة الأعداء .

ولكن ينبغي أن يعرف أن الغلظة والإثخان إنما يقع الذين من شأنهم أن يحاربوا وحدهم وفي حدود الآداب العامة لهذا الدين ، وليست هي الغلظة المطلقة من كل قيد وأدب،وقد تواترت الأخبار من وصايا رسول الله ﷺ وتعليمات الخلفاء الراشدين في هذا الشأن تحدد للمسلمين الخط الواضح لمنهج الإسلام في قتال المسلمين لأعدائهم وفي آدابه الرفيعة ورعايته لكرامة الإنسان.

أما الغلظة المطلوبة فهي الخشونة والشدة في القتال وحسب ، وليست هي الوحشية مع غير المحاربين أصلا ، وليست تمثيلا بالجثث والأشلاء على طريقة المتبربرين الذين يسمون أنفسهم متحضرين في هذا الزمان ،وقد تضمن الإسلام ما فيه الكفاية من الأوامر لحماية غير المحاربين واحترام بشرية المحاربين ، فلا يقاتل إلا من قاتل في المعركة ، وحين يثخن الأعداء المقاتلون بالجراح تحقن دماؤهم فورا ، ويستبدل بالقتل الإحسان والرحمة ، فلا يجهز على جريح ولا يتبع فار أو يمثل بقتيل أو تحرق بيوت أو تخرب أموال ؛لأن هذا كله لا يتفق مع ما شرع القتال من أجله ، وهو حماية المستضعفين ودفع الظلم والعدوان عليهم ،ومن هنا نفهم لماذا اقتصر النص القرآني في موطن القوة والانتصار على الإحسان إلي الأسرى بالمن عليهم أو افتدائهم دون قتلهم أو استرقاقهم [٤٩]

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومـــن ذلك يظهر الفرق بين تعاليم الإسلام الجامعة بين الحزم والعدل والشدة والفضـــل ، وبيـــن مـــا عليه عالم اليوم المتجبر من القسوة والظلم والتأبي علي هدي السماء[٥٠]

سادسا :استخدام كافة الوسائل المتاحة

وهـــذه الوســـائل المـــتاحة والممكـــنة هي التي تدخل في عداد مفهوم الآيتين الكريمتين "﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾(البقرة: ١٩٤)، ﴿وَقَـــاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾(التوبة: ٣٦) ، ولا يخفى ما تشير إليه الآيتان من ضرورة إعداد كل آلات الحرب وقواها المناسبة للعصر والمحققة للرد علي الاعـــتداء بالمـــثل – كمـــا عرفنا في الحلقة الأولي من هذه البحوث – وعدم الاكتفاء بالمواجهات الجزئية في إحدى الجبهات التي يفسدها النكوص في جبهات أخرى ،وأن يكـــون المســـلمون باخـــتلاف أوطانهم وشعوبهم علي رأي واحد يوالي بعضهم بعضا حكاما ومحكومين ،ورعاة ورعية حتى يجتنبوا العالم ما انتشر فيه من فساد وفتن [٥١] .

وحـــرى بالمسلمين أن يكونوا كذلك ويجوزوا من القوى والوسائل ما يمكنهم من ذلك ممتثلين لتوجيهات الله وهم أهل الحق ، وهم بالإفادة منها من أعدائهم الذين لا يفتأون – وهم أهل الباطل –من تحقيق هذه المبادئ كأنهم هم المسلمون لا غيرهم .

ومـــن عجب أن نسمع في المسلمين من يدعو إلي تجريدهم من وسائل الحرب التـــي يمتلكها أعداؤهم ،ويتداعون إلي بذل نوايا السلام بهذا التجرد والعجز ! وهيهات لأعدائهـــم أن يقـــبلوا ذلك منهم أو يرضوه ، والحال شاهد أبدا برفضهم كل تنازل أو تعـــاون ،وإصـــرارهم علي التناكر والتباغض ، وكلما مدت إليهم من المستضعفين يد قطعـــوا قبالـــتها عشـــرا [٥٢] ،ثم هيهات لهم أن ينالوا حظوتهم ونصرهم وهم لهم جند محضـــرون ،وصدق الله العظيم "﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُـــمُ الْغَالِـــبُونَ﴾(المائدة ٥٦) ، فمن تولى الله تعالى بالإيمان به والتوكل عليه ، وتولى رســـوله والمؤمنيـــن بنصرهم وشد أزرهم ، وبالاستنصار بهم دون أعدائهم فإنهم هم الغالبون . [٥٣]

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وليت المسلمون يتأسون بأسلافهم الذين وعوا عن الله ما يريده منهم في هذا الشأن ، فلقد حارب ﷺ وأصحابه أعداءهم بكل الأسلحة التي عرفت في عهدهم ،ولبسوا لكل حالة لباسها ،واستخدموا المنجنيق والعرادات في فتح الحصون بخيبر والطائف ، وقال أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد في حرب اليمامة : حاربهم بمثل ما يحاربوك به"(٥٤)،ولما كتب أمراء الجيش إلي أبي بكر قبل موقعة اليرموك يخبرونه بحالهم وحشود الروم كتب إليهم أن اجتمعوا وكونوا جندا واحدا ،والقوا جنود المشركين فأنتم أنصار الله ،والله ناصر من نصره وخاذل من خذله ،ولن يؤتي مثلكم من قلة ولكن من تلقاه الذنوب فاحترسوا منها ،وحينما التقي خالد بالروم في اليرموك عبأ جيشه تعبئة لم تعرفها العرب من قبل ،إذا نظمه في ست وثلاثين كردوسا (مجموعة) وصاول الروم بهذا التنظيم العسكري المشابه لتنظيمهم ،وبذلك استطاع إحراز النصر عليهم ،وحين ظهرت الفيلة في صفوف الفرس في القادسية ولم تكن تعرفها العرب من قبل اختراع العرب لها قوة مضادة من الرماة التي وكلت بها وبركبانها حتي ولت هاربة (٥٥).

ولقد يزعم هنا أن تطور السلاح وما انتهي إليه في صوره الأخيرة من دمار شامل للبشر من المحاربين وغيرهم يوجب تحريمه على الأمم وتجريدها مما امتكلته من هذه الأسلحة ،ولكن العجيب هنا – مرة ثانية – أن مثل هذا الكلام لا نسمعه موجها إلا إلي المسلمين لا غيرهم ،فهو في أيدي غيرهم خير وبركة ،وليس دمارا للبشرية !، وفي أيدي المسلمين وحدهم شر وبلاء وهلاك للبشرية ،وكأن ما وقع لأمة اليابان في الحرب العالمية الثانية وتدمير "هيروشيما " وناجازاكي "من مدنها في القرن الماضى ، وإهلاك الحرث والنسل أخيرا في العراق وأفغانستان كان من فعل الجن والشيطان ولم يكن من فعل الصهاينة والأمريكان ،وإذا كان استخدام هذه الأسلحة لا يجوز شرعا ولا يتفق مع تعاليم الإسلام التي تحرم قتل النفس الواحدة البريئة ،وناهيك عن قتل الملايين الأبرياء بهذه الأسلحة وتدميرها وجوه الحياة لعشرات السنين –فإن امتلاك هذه الأسلحة وحيازتها ضروري ليس لاستخدامها واستعمالها المحرم،ولكن لتحقيق نوع من التوازن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الرعب والمدافعة بها والتخويف منها ، وهو نوع من الإرهاب الذي طالبت به الآية الكريمة ،وبغير ذلك تضيع كرامة الأمة وهيبتها.

ومن حولنا نشهد اليوم أن من يمتلكون هذه الأسلحة من الأمم لا تستطيع قوى البغي والظلم إلا أن تهادنها وتخطب ودها حرصا على هيبتها وتجبرها الذي لا تجده إلا في الاستكبار علي من تجرد من هذه الأسلحة والقوى ،فضلا عن أن امتلاك هذه الأسلحة هو الذي يحفظ السلم ويمنع العدوان والاقتتال ،لأن حدوث الاقتتال مع وجود هذه الأسلحة نذير بفناء المتقاتلين جميعا ،وفرق كبير بين امتلاك هذه الأسلحة واستخدامها .

ولقد بات واضحا لكل ذي عقل فساد هذا الزعم وخطورة تلك الدعاوى التي ما فتئ أصحابها يكررونها ،فإن أعداء الحق لا ينقطع لهم كيد ،ولئن كان الهجوم المسلح -أساسا- غير مطلوب دينا ،فإن السلم المسلح من أركان الدين ،وذلك قاض بأن تأخذ الأمة أهبتها كاملة، فلا تصبح ولا تمسى إلا وهي واثقة من أنها علي حذر وتهيؤ ،فإذا بوغتت ردت على العادين وهي عزيزة قادرة ،فإذا نامت علي تفريط وصنت علي حماية نفسها ورسالتها فهي لا شك هالكة في عالم يشترع منطق القوة لا قوة المنطق. يرفع شعار له "من لم يتذأب أكلته الذئاب "[٥٦] .

وعلي هؤلاء الذين ينكرون علي المسلمين أن تكون لهم قوة تجعلهم أن يتخففوا هم من أسلحة الخراب والدمار التي يرصدونها لتدمير العالم وهلاك الجنس البشرى . وليقولوا بعد ذلك ما يشاءون ،أما أن يقال للمسلمين وحدهم هذا وممن ينهشون في جسم الأمة ويلغون في دمائهم صباح مساء ،فذاك مما لا جواب له إلا ما قال أبو العلاء :

هذا كلام له خبيئ .. معناه ليس لنا عقول [٥٧]

وما يلام في مأساة المسلمين اليوم إلا استسلامهم لهذا الدعاوى التى باتوا معها وأيديهم عزلاء بين المخالب المفترسة ،وعيونهم هاجعة بين العيون الخائنة ،وصفهم المختل أمام جبهة متساندة من الجزارين العتاة (٥٨)،وتوهمهم أن انتسابهم إلي الإسلام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والحق –فقط – يعطهم عند الله حق المسلم ،والحال أن المبطلين من أعدائهم أشد منهم تمسكا بباطلهم وأغزر إنتاجا له.

وهـيهات هـيهات أن ترجح كفة المسلمين وهم على هذا الحال ؛ لأن الإسلام الحق معرفة بالحقيقة وقيام بحقوقها ، وقد كانت غلبة المسلمين الأوائل نتيجة علم عظيم وعمـل ،أما أعقابهم من الأخلاف فاكتفوا بافتخارهم بالإسلام واحتقار الآخرين ،وذلك سـر البلادة التي تستولي علي بعض الناس وتجعل موقفهم من الحق ومطالبة فاقرا ، وأغلـب الظـن أنهم لا يفقهون الحق ،وإذا فقهوه لا يقدرونه ،وإذا قدروه يتثاقلون عن التضحية من أجله .

وتدبـر قول الله تعالي وهو يعرض بأمثال هؤلاء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّـهَ وَرَسُـولَهُ وَلا تَوَلَّـوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ*وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ (لأنفال: ٢٠ –٢١) ،وانظر عاقبتهم التي يصيرون إليها في هذه الحياة ،إن بلادتهم تتحول إلي بهيمية ،وعجز مشاعرهم عن الإدراك والإحساس يجعل منهم دوابا بشـرية "﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ*وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (لأنفال٢٢–٢٣) ،وهو مستوى منحط من الوجود لا يسمى حياة وإن كان أصحابه يأكلون ويتمتعون،ولذلك يناديهم الله أن يدخلوا فـي دينه ،وأن ينخلعوا عن أهوائهم وأوهامهم ،فهذا وحده طريق الحياة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(لأنفال: ٢٤) .

والمسـلمون المعاصرون أحوج أهل الأرض اليوم لتدبير هذا الدرس القرآني واسـتنارة به في الظلمات التي تكتنفهم من ناحية (٥٩)،وهكذا يقابل المسلمون كل قوة بمـا يتغلـب عليها،ويتخذون من الوسائل والأسباب المتاحة والممكنة ما يوصلهم إلي النصر المنشود واستحقاق وعد الله لهم به ؛

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سابعا : الثبات عند اللقاء وعدم الفرار

ومن أهم عوامل النصر – ولعله أهمها بإطلاق – الثبات والصمود عند لقاء الأعـداء وعدم الفرار من المعركة وتولية الأعداء الظهور وإن كانوا أكثر عددا وعدة وإن كانوا زاحفين ومهاجمين للمسلمين ،وقد نهي الله المؤمنين عن الفرار من المعركة بهـذه الصورة المنكرة وتوعد عليه أشد الوعيد في هذا الحال من الزحف عليهم فقال تعالي : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الأنفـال ١٥ :١٦) ، ولا شك أن النهي يكون أشد والوعيد أغلظ وأقسى إذا كان التزاحف من الفريقين ،أو كان الزحف من المؤمنين علي أعدائهم ؛لما أن التولي والفرار إنما يتصور وقوعه – وإن كان – من المزحوف عليه وهو مظنته ، أما الزاحف المهاجم فليس مظنة للتوالي والانهزام .

ومجـيء الوعيد هنا علي تولية الدبر والفرار من المعركة موجها إلي الأفراد والأشـخاص بعـد النهـي عن الفرار الموجه إلي جماعة المؤمنين ليؤكد لنا من جهة جريـرة الفـرار يـوم الـزحف وكونه من كبائر المعاصي الموبقة ،وإن الفرد فيها والجماعـة سواء في ارتكاب الإثم من جهة ثانية ،وقد جاء التصريح بذلك في الحديث الصحيح " اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ ،قال :الشرك بالله ، والسحر ،وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ،وأكل مال اليتيم ،والتولي يوم الزحف ،وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات " (٦٠).

وقد جاء تفصيل هذا الهلاك المشار إليه في الحديث فيما معناه من وعيد الآية ﴿وَمَـنْ يُوَلِّهِـمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فهو يرجع متلبسا بغضب عظيم من الله عليه ،مأواه الذي ينتهي إليه في الآخرة جنهم دار العقاب والعذاب ،وبئس المصير والمنتهي أن يكون هو جـنهم هذه ،وكأن المنهزم أراد بفرار هذه أن يأوي إلي مكان يحتمي به ويأمن فيه من الهلاك فعوقب على ذلك بجعل عاقبته التي يصير إليها دار الهلاك والعذاب الدائم ،أي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنه جوزي بنقيض قصده من معصية الفرار [٦١].

وهـذا الوعيد الشديد على الفرار مستحق في الزحوف عامة – كما يرى يراه ابـن عباس ﷺ وسائر العلماء – وبقاؤه مستمر حتي يوم القيامة ،"وإنما استحق الفرار هـذا الوعـيد لضخامة آثاره والحركية من ناحية ،ولمساسه بأصل الاعتقاد من ناحية أخـرى ،فإن قلب المؤمن موصول بقوة الله القاهر فوق عباده ،وإذا نالته هزة – وهو يواجه الخطر – فلا يجوز أن تبلغ به هزيمة أو فرارا ،فإن الآجال بيد الله أولا ،ثم إنه يواجـه عدو إنسانا مثله ،فما ينبغي – وهما متكافئان من هذه الناحية – أن يكون دون عـدوه ،فكـيف وهو يتميز عنه باتصاله بالقوة الكبرى التي لا غالب لها ،وأخيرا فإن المؤمن إلي الله حياته ومماته ،فهو في كل حالة أقوى من خصمه ،ومن ثم هذا الوعيد الشـديد "[٦٢] لمـن يخالف توجيه القرآن الكريم ،فيفر من ميدان المعركة عند مواجهة الأعـداء ،اللهم إلا أن يكون هذا الفرار" نوعا من مكيدة الحرب وخدعها التي يعرفها المحـاربون وتدخـل في عداد ما يسمى بلغة الحرب الحديثة "التكتيك" العسكري، كأن يختار المحارب موقعاً أحسن ،أو يدبر خطة أحكم ،أو يستدرج العدو ويطمعه فيه ليوقع بـه، أو يكـون ذلك انضماما إلي فئة أخرى من المسلمين تقوية لهم ،أو تعضيدا لقوة المسلمين وتجميعا لهم لتركيز الانقضاض علي العدو والإجهاز عليه مما سماه الله في الاسـتثناء من الوعيد "التحرف للقتال والتحيز إلي فئة " ،وكما فعل خالد بن الوليد في مؤتة حين اصطلح الناس على حمله الراية وقيادتهم بعد استشهاد الصحابة الثلاثة ،فلما أخذ الراية دافع القوم وحاشى بهم ،ثم انحاز وتحيز عن عدوه حتي انصرف بالناس .

ولذلك لما دنا خالد بن الوليد والجيش معه من دخول المدينة ونجاتهم بتصرفه الذكي من كارثة محققة جعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فرار في سـبيل الله ،ولكن رسول الله ﷺ يرد عليهم ويبين حقيقة ما صنع خالد ونجاته والجيش معـه فقـال :ليسـوا بالفرار ،ولكنهم الكرار إن شاء الله [٦٣] ،فشتان شتان بين تراجع وتولية للدبر في صورة بشعة يبدو فيها صاحبها فارا منهزما والعدو خلفه يطارده من موقع إلى موقع ،ومن ميدان إلي ميدان ،وبين تراجع شكلي يخضع لضرورة قتالية أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تدبير عسكري،ويتغيا خطة حربية كالانضمام إلي فئة من المؤمنين ،أو تجمع في موقع مهم ليكون منطلقا إلي النصر ،وتراجع رجل خطوة أو أكثر عن هاوية في طريقه يتحاشاها ويتقى السقوط فيها يعتبر تعقلا واعيا وحسن تدبر حميد ،ومن هنا فرق القرآن الكريم في هذه الآية بين هذين المفهومين للتراجع والتقهقر ،أحدهما يسلك بصاحبه طريق الجنة والآخر يسلك بصاحبة طريق النار (٦٤).

هذا وثبات المرء ورباطة جأشه وتماسكه وصموده ليس عاملا مهما في إحراز النصر عسكريا فحسب ،إنما هو منوط به النجاح والنصر في شؤون الحياة كلها وبخاصة فيما يلم بالإنسان من مشاق وصعاب، فإذا فوجئ الإنسان بروع فثبت له ولم تأخذه دهشة المباغتة كان حريا أن ينجح في مقاومته ،وأن تكون له العقبى ولن طالت مراحل الكفاح ؛أما إذا انتابه الفزع وطار قلبه شعاعا فهيهات أن يتماسك ،هذا الثبات أولا هو بذرة النصر آخرا ،وضبط النفس -حتي لا تطيش بازاء حادث ما - ليس بالأمر الهين ،إنه يحتاج إلي الفكر السديد والعزم الحديد ،والعظماء من الناس والأمم كثيرا ما تظل مواهبهم مطوية في أستار العزلة البعيدة حتي تقع حادثة كبيرة ،فيكون موقفهم منها بداية تكشفهم للناس كما ينكشف البدر بعد انقشاع الغيوم .

ويقولون :مهما يكن الطريق إلي الغاية المنشودة طويلا فإن المهم هو الخطوة الأولي فيه ،وهذا حق ،بيد أن الخطوة الأولي لا تلدها إلا عزيمة كاملة وعاطفة ناضجة، إن الحوافز العظيمة وحدها هي التي تدفع إلي المخاطر وتجرئ على اقتحام الصعاب ،والأمور لا تكون جسيمة أو هزيلة في نفسها بقدر ما تكون كذلك في عين هياب أو مقدام ،وكما قال القائل :

وتكبر في عين الصغير الصغائر .. وتصغر في عين العظيم العظائم

أو كما قال المتنبي

وما الخوف إلا ما تخوفه الفتي .. وما الأمن إلا مارآة الفتي أمنا

ولهذه الأهمية الكبرى للثبات فقد جاء به القرآن الكريم في مقدمة دستور النصر وعوامله جمعيا في قوله تعال :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللَّـهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال ٤٥ -٤٦)

ولقد يكون المقاتل شجاعا جريئا ،ولكنه بعد صدمة من صدمات القتال وأهواله ربما قعدت به شجاعته ،وتوقف عن الثبات إلي أقصى مدى،وهنا تبدو أهمية الاستمساك بالأمل والثبات إلى النهاية مهما قست الظروف ،وليعلم المؤمن أن الله كتب النصر للصامدين الثابتين من المقاتلين الذين لا يهنون ولا يستكينون، ،﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦ ١٤٨).

والثبات والصمود في وجه الأعداء وعدم اليأس من النيل منهم ليس معني سلبيا يتلقى فيه المحاربون ضربات أعدائهم ومقاومتهم بالدفع عن أنفسهم وحسب ،بل يعني مقاتلتهم بكل مستطاع وممكن معنويا وماديا ، ومجاهدتهم بكل غال ونفيس من الأموال والأنفس حسبما يقتضيه الزمان والمكان ،وهو ما يفهم من قوله ﷺ " لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله كثيرا ،فإن صخبوا وصاحوا فعليكم بالصمت "[٦٥] ،ومن قول الصديق لخالد بن الوليد : "احرص علة الموت توهب لك الحياة ،واذكر أن السلامة في الإقدام والردي في الإحجام [٦٦].

وتجارب المسلمين في معاركهم وحروبهم كلها مؤكدة لهذا وشاهدة عليه، ابتداء من غزوة بدر والمسلمون يومها قليل وأعداؤهم ثلاثة أمثالهم مرورا بمؤتة وحنين وتبوك واليمامة واليرموك والقادسية وحطين وعين جالوت وغيرها من المواقع الحاسمة التي انتصروا فيها وهم قلة أمام أعدائهم الكثيرين .

ويحكي تاريخ هذه المعارك صورا من صمود المسلمين وثباتهم الإيجابي في الإقدام وعدم الإحجام كما قال الصديق ﷺ ،وقد ترجم الصديق نفسه كلامه واقعا حيا في أحرج المواقف وأصعبها علي المسلمين والإسلام ،حيث وقف التاريخ مشدوها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يرصد ويسجل ما تألق في جبين الرجل الوقور الحليم من فضائل الثبات والجرأة والإقدام حين انتفض حبل العرب بارتداد كثير منهم عن الإسلام ،وأوشكت عصابات الأعراب وجيوش ما نعي الزكاة على دخول المدينة ،وكيف قاد المسلمون بعد أن شرح خطته في الدفاع عن المدينة ،ورسم لكل من أفراد الجيش دوره الذي يقوم به أو يموت دونه،احتدم الصراع وتنزل نصر الله على جنده ،وهم النفر القلائل الذين فاقت فعالهم جيشا جرارا،وتعلم المرتدون أن المدينة غاية في المنعة بما فيها جند كثيف (٦٧).

وفي موقعة اليمامة حين أختلط المسلمون بالمقاتلين من بني حنيفة صاح فيهم خالد أن تمايزوا حتي نعرف من أين نؤتئ؟ فميز المهاجرين والأنصار ،وميز الأعراب كل بني أب على راية ،وعول خالد على الموت،وقال لمن بجواره : لأويتن من خلفي ،واندفع في قلب المعركة يصول ويجول ،ويتقدم بغير رجوع ،وكان لواء الأنصار مع ثابت بن قيس ،فتحنط وتكفن،وحفر لقدميه في الأرض وصاح قائلا : يا معشر المسلمين ،أنتم حزب الله ،وهم أحزاب الناس والعزة لله ولرسوله وحزبه ، أروني كما أريكم ،ولم يزل ثابتا حتي قتل في مكانه ،صاح زيد بن الخطاب :أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا في عدوكم ،وامضوا قدما ،ثم أقسم لا يتكلم حتي يهزمهم الله أو يلقاه بحجته.

وتجاوبت ساحة الميدان بأصوات أبطال الإسلام يوصي بعضهم بعضا وهم ينقضون علي أعدائهم ويتنادون :يا أصحاب سورة البقرة ،يا أنصار الله، فاستحيا كل أن يتزحزح عن مكانه ،لوم ير منهم إلا قتيل في موضعه أو زاحف إلى الأمام ،وما هي إلا سويعات حتي تنزل بعدها نصر الله فانكسر أصحاب مسيلمة وحلت الهزيمة بأعداء الله (٦٨)

وفي معركة اليرموك أمر أبو عبيدة النساء أن يجعلن الحجارة بين أيديهن ،فإن كان الأمر للمسلمين أقمن على ما هن عليه ،وإن رأين أحدا من المسلمين منهزما أرجعته بحجارتهن ورفعن إليه أولادهن ،وقلن له : قاتل عن أهلك وعن الإسلام ،ولم يقنع خالد بن الوليد بهذا ،بل قال لهن :أيما رجل أقبل عليكن منهزما فا قتلنه (٦٩).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هـذا ومـن دعائم المقاتلين في الميدان صلاح بالهم وسكينتهم واطمئنانهم إلي ثـبات من خلفهم من أهلهم وذويهم وتماسك جبهتهم الداخلية من ورائهم ووقوفها صفا واحـدا يحمى ظهورهم في الميدان ،ويمنحهم العون المادي والمعنوي ،وهو من أقدس واجبات النضال والقتال ودعائم النصر وأسبابه .

وإذا كـان هـذا التماسـك الاجتماعي في داخل الأمة وبين أفرادها المدنيين مطلوب دائما ،فهو في أوقات الحرب والقتال ضرورة من ضرورات العزة والانتصار حيـث تغيـب كل المصالح الخاصة في سبيل المصلحة العامة وتحقيق أمل النصر ، وتعمـل في سبيله كل القوى وتسخر له جميع الإمكانات ،ويسهم كل مواطن بما يتيسر له في جوانب النشاط البشرى فيكون كل منهم كما لو كان مقاتلا في الميدان ،وحارسا على "ثغر من ثغور الإسلام " ،ويحاذر أن يؤتي الإسلام من قبله .

وبهـذا التماسـك الداخلي يطمئن المحاربون في الميدان لما وراءهم من هذا الجـيش الشعبي الذي يعتبر رصيدا احتياطيا ومددا يدعم صفوفهم معنويا وماديا ،وقد قـيل :إن المقاتل في المعركة يحتاج إلي خدمات ثمانية عشر مدنيا ينتجون له السلاح ويمدونـه بالذخـيرة والمـؤن والعلاج ،ويحافظون على إمداداته ووسائل اتصالاته، ويدعمون صموده بالكلم الطيب والنصح الرشيد والحفاظ علي حرماته في أهله والقيام بشؤونهم في غيبته حتي لا يشغل بهم كما قال ﷺ "حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم "(٧٠)

وقـد نبه الله المسلمين على أهمية هذا التماسك والتكتل من وراء المحاربون ، وحذرهـم مـن ضعاف النفوس الذين يفتون في عضد المحاربين ويثبطون وعزائهم ويمـزقون أواصر المجتمع وتماسكه ممن سماهم بالمبطئين القاعدين عن الحرب ،وان خطـر هؤلاء على المسلمين ربما كان أعظم من خطر أعدائهم في ميدان الحرب ،قال تعالـي : ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً *وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (النساء: ٧٢- ٧٣).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد أعطانا الصديق ﷺ درسا عظيما في الحرص علي تماسك الجبهة الداخلية وحمايـــة ظهـــر الجيش الإسلامي في الميدان ،فيحن حضرته الوفاة والجيوش تحارب الفـــرس والروم – وقد جاء المثني بن حارثة إلى المدينة يطلب مداد لجيش العراق – خشـــى رحمـــه الله على الجبهة الداخلية إذا ترك المسلمين بلا خليفة ،فأخذ رأي كبار الصحابة فيْ استخلاف عمر وأوصاهم بمبايعتهِ بعد موته ،ثم استدعى عمر وقال له : اســـمع يا عمر ما أقول لك واعمل به :إني لأرجو أن أموت في يومي هذا فإذا أنا مت فـــلا تمســـين حتي تندب الناس مع المثنى ،ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم ،وقد رأيتني بعد متوفي رسول الله ﷺ وما صنعت ولم يصب الخلق بمـــثله، وبالله لو أننا نأينا عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبة فاضطرمت المدينة نارا [٧١].

وبعد :فهذا الثبات والتماسك لدى المحاربين وما عرفناه من أهميته العظمي بين وسائل النصر وأسبابه التي تتعلق بلقاء الأعداء ومدافعتهم في ساحة القتال وكأنه قطب الرحـــي بيـــن هذه الوسائل والأسباب ،فليس غريبا إذن أن يجئ التنويه به مرتين في القـــرآن الكـــريم وهـــو يعـــرض لنا في موضع واحد دستور النصر وأسبابه الكبرى مجـــتمعه، مرة في بداية مواد هذا الدستور ومرة أخرى في نهايتها كأنه الحاصرة التي تحوط هذه الوسائل والأسباب في جهة ،ويناط بها فعاليتها من جهة أخرى ،والتقت عليه أول الـــنداءات للمؤمنين وآخرها في سورة الأنفال [٧٢] (الجهاد) لتكون نبراسا لهم فلا يستغني عن فقهها وهديها منهم سلف ولا خلف .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخاتمة

وأخـــيرا فهذه وسائل النصر وأسبابه كما هدى إليها القرآن الكريم في أصولها الأولـــي وروحها العام ،وما انتهى إليها المهديون من صحابة رسول الله ﷺ والمتأسون بـــه قـــادة المسلمين وأمرائهم ،جهدنا في تصنيفها وتنويعها إلي ما يتعلق منها بالإعداد والتحضير الذي يسبق ملاقاة الأعداء ،سواء كان هذا الإعداد ماديا أو معنويا – وهو ما كان موضوع الحلقتين السابقتين – وما يتعلق منها بميدان ملاقاة الأعداء ومدافعتهم – وهو ما كان موضوع هذه الحلقة الثالثة والأخيرة .

وهذه الوسائل والأسباب وإن كانت متداخلة ومتشابكة ويصحب بعضها بعضا يلحـــظ القارئ – وقد نوعناها في الحلقات الثلاث لتيسير درسها واستيعابها فحسب – فهـــي مما لا تغيب عن مسلم حق يتطلب هدى القرآن الكريم في هذا الشأن العام الذي يـــألم بـــه المسلمون اليوم قاطبة أمام الغارة الوحشية الجديدة التي تتعرض لها أممهم وأوطانهم دون أمم العالمين وأوطانهم .

ولعـــل المســـلمين – قـــد غفلـــوا عن هدى كتابهم طويلا – أن يستجيبوا الله وللرسول ويخرجوا من هذا التيه والتهالك وهم أحوج أهل الأرض إلي فقه هذه العوامل والأســـباب ليس لمدافعة أعدائهم ودرء الهلاك عن أنفسهم ،أو إحراز النصر واسترداد هويتهم المفقودة فحسب ،بل للحفاظ على قوام الأمة واستدامة صلاحيتها لرسالتها ليجئ حكم القدر بعد ذلك عادلا بيننا وبين أعداء الله .

هـــذا هو طريق النصر ،ونهج الله الذي رسمه لعباده لا طريق غيره ولا نهج سواه فإذا تنكب العباد الطريق وحادوا عن نهج الله وطلبوا النصر بغير وسائله وأسبابه فهـــيهات هـــيهات أن يفتلوا من عقبي هذا الارتداد الخسيس وتلك الخيانة الفاجرة،ولن يجـــنوا من هذه المسالك إلا خيبة السعى وضياع الجهد، ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ (هود:١١٣)

وهـــذا عهـــد الله لمن حملهم أمانة الوحي بعد أن عبث بها غيرهم ،فإذا ضيع هـــؤلاء الأمانـــة ونقضوا عهد الله فهيهات أن يترك الله ناقضى عهده يمرون بسلام ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولـــيس بكثير عليهم- بعد هذا الكنود المر – ما يصيبهم من هزائم تتكسر لها الرؤوس ويندى لها الجبين ، وليس هذا وذاك إلا حصاد الغرور ومكر السوء ، ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْـــعُرُونَ﴾ (النحل:٢٦)، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(فصلت: ٤٦).

والله من وراء القصد وما التوفيق إلا بالله ،،

د/ محمد إبراهيم شريف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهوامش

(١) تاريخ الأمم والملوك – أبو جعفر بن جرير الطبري ٢/ ٢٨١ طبع دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٨٨م .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن حذيفة في كتاب الجهاد – باب كتابه الإمام الناس ٤/ ٣٣ – ٣٤ طبع استانبول ١٩٨١.

(٣) هـذا عذر حاطب بن أبي بلعتة للرسول ﷺ لما أطلعه الله على محاولته إعلام قريش بما نواه ﷺ من دخول مكة وتجهيزه لذلك راجع :سيرة النبي ﷺ – ابن هشام ٤/ ١٧.

(٤) راجـع : فـي ظلال القرآن –سيد قطب ٦/ ٣٥٤١ ،والعبرة ماثلة تماما فيما نشـهد من حاضرنا الذي نرى فيه صباح مساء كلما تودد المسلمون لأعدائهم ازدادوا هـم تعنتا وتقتيلا ،وكلما مدت إليهم يد للسلام قطعوا قبالتها عشرا – كـأن الآيـات الكـريمة نازلة لتوها – وهذا هو القرآن الكريم الذي يتجاوز مضـمونه ما نزل لعلاجه من مشكلات جزئية محلية ليرفع بها ضيق الزمان والمكان إلي الأفق العالمي الإنساني.

(٥) سيرة النبي ﷺ –ابن هشان أبو محمد عبد الملك ١٤/٤ – مراجعة محمد محيى الدين عبد الحميد طبع القاهرة ١٩٣٧م.

(٦) راجع :سيرة النبى ﷺ –ابن هشام ٢/ ٢٥٦.

(٧) أخرجه مسلم عن أنس في كتاب الإمارة –باب ثبوت الجنة للشهيد ٣/ ١٥١٠ تحقـيق فؤاد عبد الباقي طبع إدارة البحوث بالسعودية ١٩٨٠م ،وانظر :الفتح الرباني – أحمد البنا ٣٠/٢١ ،وبسبس هو ابن عمرو بن ثعلبة الأنصاري من الخزرج.

(٨) أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس والطبراني في الكبير عن أم مالك البهزية،راجع :الجامع الصغير – للسيوطي ٩/٢ طبع دار الكتب العلمية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٩) العقـد الفريد – أحمد بن محمد بن عبد ربه ٩٢/١ تحقيق سعيد العريان طبع دار الفكر بالقاهرة ١٩٤٠م.

(١٠)راجع : عبقرية خالد – عباس العقاد ص ١١٥ طبع الفجالة بالقاهرة د.ت.

(١١)العقد الفريد –أحمد بن عبد ربه ٩٣/١ مراجعة سعيد العريان طبع دار الفكر بالقاهرة ١٩٤٠ م.

(١٢)أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفي في كتاب الجهاد باب لا تمنوا لقاء العدة ٤/ ٢٤ .

(١٣) نهـج البلاغة للإمام على بن أبي طالب – جمع الشريف الرضى ٢/ ٣٥٨ طبع الحلبي ١٩٦٣م.

(١٤) مـن مثل قوله تعالي : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّـهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة:١٩٠) ، ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾(البقرة: ١٩٤) ،﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(التوبة: ٣٦) ، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ ﴾(النحل: ١٢٦) .

(١٥) الجهـاد في الإسلام – كيف نفهمه نطبقه – محمد سعيد البوطي ص ١٠٨ طبع دار الفكر دمشق ١٩٩٧م.

(١٦) راجع في كيد هؤلاء وتخطيطهم وظهور قصدهم العدوان –: سيرة النبى ﷺ ٣/ ٣٣٤ ، ٤٢٩ ، وكانـت العلاقـات تسوء بين المسلمين واليهود سنة بعد أخـرى ، ولا يفتأ اليهود يكيدون للرسالة الخاتمة ويبيتون الشر للرسول ﷺ وصـحبه ،فـرأي أن يجهز على وجودهم العسكري وأن يهدم حصونه التي يتحصنون بها .

(١٧)راجع : الجهاد – البوطي ص ١٠٩ –١١٠ ،هذا وقد عاني المسلمون حديثا – ومـا زالوا يعانون – من تبعات انتظار ضربة الأعداء الأولي وتلقيهم لها ،فمـا أفاقوا منها حتي اليوم ،وهيهات لهم أن يفيقوا وهم ما زالوا على النهج

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقيمين ولا ينفكون عن دائرة المفعول به أبدا لا يتجاوزنها إلي دائرة الاستباق وإجهاض تدبير أعدائهم .

(١٨) الجهاد الإسلامي –أحمد غنيم ص ٣٣– طبع دار الإنسان بالقاهرة ١٩٧٥م.

(١٩) راجع :سيرة النبيﷺ –ابن هشام ٣/ ٣٨٠.

(٢٠)جاء هذا ضمن معاهدة الحديبية التي نص فيها ألا تعتدى قريش ولا المسلمون على حلفاء كل منهما ،لكن قريشا نقضت ذلك وتسللت بالغدر ليلا واعتدت على حلفاء المسلمين من خزاعة .سيرة النبيﷺ ٣/ ٣٦٦.

(٢١) راجع :الجهاد الإسلامي – أحمد غنيم ص ٣٨ – ٣٩.

(٢٢) راجع ما قصه الله تعالي عن هؤلاء في الفترة الآيات من سورة المائدة ٢١ –٢٦ .

(٢٣) معركة الوجود بين القرآن والتلمود – عبد الستار فتح الله سعيد ص ١٧٦ – ١٧٧ طبع دار النصر بمصر ١٩٨٠م.

(٢٤)جاء السبب هو – في الأعم الأغلب – من مقدرات المسلمين ،وخصما من إمكاناتهم وقدراتهم ،وكأن هذه المقدرات والإمكانات ما زودنا الله بها– وهي نعمه سبحانه وتعالي – إلا لتكون سببا وذريعة لإذلالنا ونقمة علينا ،ولله خلقه شؤون.

(٢٥)الإشارة هنا إلي ما قدرته الآيات الكريمة : ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:١١١)، ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ* وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة ٩٤ :٩٦)

(٢٦) راجع :تفسير القرآن الحكيم (المنار") ٥/ ٢١٧ ،وقارن ما تقرره

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

توجيهات القرآن الكريم بما انتهي إليه حال المسلمين من الاستخذاء والنكوص والاستسلام المهين،والذي يتجرعونه تحت راية الخيار "الاستراتيجي" للسلام تارة،وتفويت غرض الخصم والعدة في تحديد زمان ملاقاته ومكانه تارة أخرى ،حتي أضحت أفضل وسائل التعامل مع الأعداء هي الرضا بظلمهم لنا ،وصمودنا حتي يهلك الأعداء وتخور قواهم ،أو الاكتفاء بملكمات ووعود وتسويفات حتي آخر الزمان ، وغير ذلك من أساليب الدجل السياسي والاستخفاف بمقدرات الآمة ومصائر الأوطان التي رهنت واحتبست مقابل تسلط الدجالين والمستخفين المسارعين في هوى أعداء الأمة والحدب عليهم أكثر من حدبهم على أمتهم .

(٢٧) البيت للأفوه الفوي،راجع :لسان العرب – جمال الدين بن منظور ٥/ ٣٤٨٥ طبع دار المعارف د.ت.

(٢٨) راجع :في ظلال القرآن – سيد قطب ٦/ ٣٥٥٢ – ٣٥٥٥.

(٢٩)كان القتال قبل الإسلام يعتمد الكر والفر فيما عرف من ملاحم العرب الجاهليين ومعاركهم ،انظر :عبقرية خالد – العقائد ص ١٥٦.

(٣٠)روح المعاني في تفسير القرآن العظيم – شهاب الدين الألوسي ٢٨ /٨٤ – طبع دار إحياء التراث د.ت

(٣١) راجع الإشارة إلي هذه القاعدة العامة في قوله تعالي : ﴿ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(الشورى: ٧) ، ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ (الأنعام: ١٩)،أي كل من بلغته دعوته ،بل أمر الله نبيه ﷺ أن يخص الأقرب إليه في النسب من أهل بلده أم القرى بالدعوة أولا ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤) ، وكان النبي ﷺ يرعى ذلك فيعطى من أعلي يمينه ثم الذي يليه ، وأمر أن يأكل الإنسان مما يليه،وغير ذلك .راجع : تفسير القرآن الحكيم (المنار) ١١/٦٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٣٢)أسباب نزول القرآن -أبو الحسن على بن أحمد الواحدي ص ٢٦٦ تحقيق السيد صقر طبع دار القبلة ١٩٨٤م.

(٣٣) الله أو الدمار - سعيد جمعة ص ١٦٧ طبع المختار الإسلامي ١٩٧٦م.

(٣٤) تفسير القرآن الكريم - محمود شلتوت ص ٦٣٧ طبع دار الشروق بالقاهرة ١٩٧٤م.

(٣٥) هذا المبدأ الذي قرره القرآن الكريم من المبادئ التي تعمل بها الدول المتحاربة حديثا ،فلا تدخل أي منها معركة مع غيرها إلا وهي مطمئنة إلي جبهتها الداخلية أمنيا واقتصاديا واجتماعيا -كما سنعرف بعد -لتوفر لجبهة القتال أداء مهمتها بدقة ونجاح،ثم هي لا تخلوا أو تتقدم في ساحة المعركة إلي قوة بينهم وبينها قوى محاربة لها ،ثم هي لا تخطو أو تتقدم في معركة إلي قوة بينهم وبينها قوى محاربة لها ، عملا على إزالة العقبات من أمامها من جهة واطمئنانا لسلامة ما خلفته من ساحة المعركة وراء ظهرها من ناحية أخرى،راجع :تفسير القرآن الكريم - محمود شلتوت ص ٥٣١.

(٣٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم -شهاب الدين الألوسي ١١/ ٥٠.

(٣٧) تاريخ الأمم والملوك - أبو جعفر جرير الطبري ٢/ ٢٥٧ طبع دار الكتب العلمية -بيروت ١٩٨٨م.

(٣٨) أخرجه مسلم عن أبي هريرة في كتاب الإمارة -باب الإمام جنهاة الصحيح ٣/ ١٤٧٠ .

(٣٩) أخرجه الإمام أحمد عن أنس . راجع :الفتح الرباني - البنا ٢١/ ٣٠ في حوادث السنة الثانية للهجرة.

(٤٠) أخرجه الإمام أحمد ،راجع الفتح الرباني في حوادث السنة الثانية للهجرة ٢١ / ٣٦.

(٤١) راجع :سيرة النبي - ابن هشام ٢/ ٢٥١ ،فقه السيرة - محمد الغزالي ص ٢٣٦ ،مسند أحمد حديث رقم ٣٩٠١ ، ٣٩٦٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٤٢) قـــال ﷺ : " خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم .." أخرجه الدارمي عن عوف بن مالك الأشجعي في كتاب الرقاق – باب في الطاعة ولزوم الجماعة ، السنن ٢/ ٢٣٢.

(٤٣) مـــا ذكـــرناه هنا من مشاركة القائد فى الأعمال القتالية وقدرته في ذلك مما تشـــير إليه آيات القرآن والأحاديث النبوية صالح كله للتطبيق ،وواجب علي كـــل قـــائد ولكـــن بالشكل الممكن في تشكيلات الجيوش الحديثة وتنظيماتها ،وحيـــث لا يستطاع ممارسة القتال مع سائر الأسلحة وفي كل الجبهات فقد بقـــي مـــن الممكن أن يراه الجنود في مواقعهم بين آن وآخر ،والتصاقهم به وارتباطه بهم على جميع مستوياتهم .

(٤٤) لاحـــظ ترجمة ذلك في واقعنا المعاصر من تصريحات بعضهم أن أمريكا إذا عطســـت أصيبت الأمة بالتهاب رئوى ،أي تتداعي إليها "كما تتداعي أعضاء الجسد إذا ألم بأحدها مكروه" ومن فتاوى علماء هؤلاء بتحريم مهاجمة هؤلاء الذين احتلوا أرضنا وسرقوا أوطاننا ،وتأثيم الدعاء عليهم – وهو حيلة العاجز وجهد المقل –إن خيانة هؤلاء لأنفسهم وأمتهم علي هذا النحو المذل – بعد أن مكـــنوا أعداءهـــم مـــن بلادهم – لا يجدي معها تضرع أو ادعاء تقوى ولن يغفرها لهم التاريخ الذي سيقضى عليهم بعد محاكمتهم بلعنات الأجيال حياتهم ومماتهم .

(٤٥) وهـــذا مـــا حـــدث مـــن فعل الصهاينة في تدميرهم للمطارات والطائرات المصـــرية المكشـــوفة فـــي حرب ١٩٦٧م، بهجماتهم المتتالية ،فشلت قوات المصـــريين، وأفقدتها الحركة بعد أن أصبحت مكشوفة لا يغطيها طيران ولا تسندها قوى تجمي ظهرها .

(٤٦) في ظلال القرآن – سيد قطب ٣/ ١٥٤١.

(٤٧) راجـــع :علـــل وأدويـــة – محمـــد الغزالـــي ص ٢٤٤ – طبع دار الدعوة بالإسكندرية ١٩٩١م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٤٨) تفسير القرآن الحكيم – رشيد رضا ١٠ /٤٤.

(٤٩) كثيرة هي وصايا الرسول ﷺ وصحابته إلى قادة المقاتلين في هذا الشأن ، راجع ما أخرجه الإمام أحمد بريرة الأسلمي ،والدارمي عن ابن عمر :الفتح الرباني – كتاب الجهاد ١٤/ ٤٦ ،سنن الدارمي ٢/ ١٣٥ طبع ١٩٨٤م.

(٥٠) فإن قيل هنا :إن اتباع المسلمين وحدهم لهذه الفضائل في الحرب يمكن أعداءهم من خيانتهم والظهور عليهم بعدم التزامهم لها ،قلنا :إن أعداءهم في العصور الأولي كانوا أبعد من أعدائهم في العصر عن الفضائل ،قد غلبهم المسلمون بهذه الفضائل وأمثالها .تفسير القرآن الحكيم (المنار) ١٠/ ١٢٧ ،والله كفيل بالتمكين منهم بعد استفراغ الوسع معهم في معاملتهم بتكريم الآدمية فيهم، وإصرارهم على الخروج عن فضائل الإنسانية ،قال تعال :" ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (لأنفال:٦٢) ، ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ (لأنفال: ٧١)

(٥١) تأمل في ذلك قول الله تعالي :﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (لأنفال:٧٣)

(٥٢) وتأمل ما أخبر الله عنهم في هذا الشأن : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾(البقرة: ١٠٩) ، ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (آل عمران:٦٩)

(٥٣) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٦/ ٣٦٦

(٥٤) تاريخ الأمم والملوك – أبو جعفر محمد بن حرير الطبري ٢/ ٢٦٥.

(٥٥) البداية والنهاية – عماد الدين بن كثير ٤/٧، ٥، ٤٣ طبع مكتبة المعارف بيروت د.ت .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٥٦) مـن معالم الحق في كفاحنا الإسلامي – محمد الغزالي ص ١١٩ – الطبعة الثانية –دار الاعتصام بالقاهرة د.ت.

(٥٧) الحرب والسلام في الإسلام–عبد الكريم الخطيب ص ٨٣ طبع دار نجد ،دار الفكر ١٩٨١.

(٥٨) علل وأدوية – محمد الغزالي ص ٢٤٤.

(٥٩) الإسـلام والطاقـات المعطلة – محمد الغزالي ص ١٢٥ – ١٢٦ – الطبعة الرابعة بالقاهرة ١٩٨٣م.

(٦٠) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا – بابا " ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾الصحيح ٣/ ١٩٥.

(٦١) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٩/ ٥١٣.

(٦٢) في ظلال القرآن سيد قطب ٣/ ١٤٨٩.

(٦٣) راجع :تاريخ الأمم والملوك – الطبري ٢/ ١٥١، ١٥٢.

(٦٤) المـنهزمون – يوسـف العظم ص ١١٦ – الطبعة الرابعة دار القلم بدمشق ١٩٨١م.

(٦٥) أخرجه الدارمي عن عبد الله بن عمرو في كتاب السير –باب لا تتمنوا لقاء العدو – السنن ٢/ ١٣٥.

(٦٦) البـيان والتبيين – الجاحظ ٣/ ١٧٠ – ت عبد السلام هارون طبع الخانجي بمصر د.ت .

(٦٧) من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي – محمد الغزالي ص ١١٣ –١١٤.

(٦٨) تـاريخ الأمـم والملوك – الطبري ٢/٢٨٠ ،وانظر :عبقرية خالد – عباس العقاد ص ٩٦ – ٩٧ طب نهضة مصر بالقاهرة ١٩٨٠م.

(٦٩) البداية والنهاية – ابن كثير ٧/ ٨، ١١ ،وانظر عبقرية خالد ص ١٣٤ – ١٣٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٧٠) صحيح سنن النسائي – كتاب الجهاد –باب حرمة نساء المجاهدين ٢/ ٦٧١ تصحيح الألباني طبع مكتب التربية العربي الخليجي ١٩٨٨م.

(٧١) تاريخ الأمم والملوك –الطبري ٢/ ٣٤٥.

(٧٢) راجع هذه الآيات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ*)وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (لأنفال ١٥ :١٦)،﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٢٠) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤) ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (:٢٧)،﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(٢٩) ،﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ*)وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (لأنفال٤٥ :٤٦).

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثبت المراجع

١- أسباب نزل القرآن – أبو الحسن على بن أحمد الواحدي – تحقيق السيد صقر – طبع دار القبلة ١٩٨٤م.

٢- الإسلام والطاقات المعطلة- محمد الغزالي – الطبعة الرابعة بالقاهرة ١٩٨٣م.

٣- الله أو الدمار – سعد جمعة – طبع المختار الإسلامي بالقاهرة ١٩٧٦م.

٤- البداية والنهاية –الحافظ أبو الفداء ابن كثير –طبع مكتبة المعارف بيروت – د.ت.

٥- البيان والتبيين – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تحقيق عبد السلام هاورن طبع الخانجي بمصر د.ت.

٦- تاريخ الأمم والملوك –أبو جعفر محمد عبده ورشيد رضا – طبع الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٣م.

٧- تفسير القرآن الحكيم (المنار) محمد عبده ورشيد رضا – طبع الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٣م.

٨- تفسير القرآن الكريم – محمود شلتوت – طبع دار الشروق بالقاهرة ١٩٧٤م .

٩- الجامع الصغير – جلال الدين عبد الرحمن السيوطي طبع دار الكتب العلمية د.ت.

١٠- الجهاد الإسلامي – أحمد غنيم طبع دار الإنسان بالقاهرة ١٩٧٥م.

١١- الجهاد في الإسلام ،كيف نفهمه ؟وكيف نطبقه – محمد سعيد رمضان البوطي طبع دار الفكر بدمشق ١٩٩٧م.

١٢- الحرب والسلام في الإسلام – عبد الكريم الخطيب – طبع دار نجد ،دار الفكر ١٩٨١م.

١٣- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني – شهاب الدين محمد الألوسي – طبع دار إحياء التراث د.ت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٤- سـنن الدارمي - أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي - طبع حديث أكاديمي باكستان ١٩٨٤م.
١٥- سيرة النبيﷺ - أبو محمد عبد الملك بن هشام - مراجعة محمد محيى الدين عبد الحميد - طبع القاهرة ١٩٣٧م.
١٦- صـحيح الـبخاري - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي - طبع المكتبة الإسلامية باستانبول تركيا ١٩٨١م.
١٧- صحيح سنن النسائي - أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب تصحيح الألباني - طبع التربية لدول الخليج العربي ١٩٨٨م.
١٨- صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج القشيري - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - طبع إدارة البحوث بالسعودية ١٩٨٠م .
١٩- عبقرية خالد - عباس محمود العقاد - طبع نهضة مصر - الفجالة بالقاهرة ١٩٨٠ .
٢٠- العقـد الفـريد - أحمد بن عبد ربه - مراجعة محمد سعيد العريان طبع دار الفكر بالقاهرة ١٩٤٠.
علل وأدوية - محمد الغزالي - طبع دار الدعوة بالإسكندرية ١٩٩١م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner